

Amly

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

نجم وحيد في الأفق

محمد جبريل



نجم وحيد فى الأفق

Amy

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

نجم وحيد في الأفق

محمد جبريل

الناشر
مكتبة مصر
سنة ١٤٠٠ هـ
شارع كامل صديق - القاهرة
٥٩٠٨٩٥٠

إن الحياة لا تهدو
شاقة ، غير مستقلة ، إلا
على أولئك الذين
يسترجعون لسان رؤىة
قبورهم وهم أحياء
سان جوست

منذ أربعين عاماً أو نحو ذلك ، شكاً يحس حقى فى بعض كتاباته من
 انحصار أغلب أدبائنا فى دائرة الخيرات الواقعية المحسوسة ،
 واقتصرهم على وصف المشاكل الاجتماعية والاقتصادية للمؤلف
 الصغير المطعون أو الطالب الفقير أو المرأة المقهورة فى زواجها أو
 محاولتها كسب العيش ، تاركين جانباً لتجارب الروحانية الكبرى التى
 تمثل أزمات الضمير ، وصلاة الروح ، وتوترات العقل . و " نجم وحيد
 فى الأفق " واحدة من الروايات العربية لقليلة التى تقى بما تطلع إليه
 يحس حقى ، فهى رواية أزمة وجودية حادة تبدأ بالفعل وتنتهى بالمتطور
 على المعنى . إنها أشبه بكوسموس إلهية صغيرة ، حى بحرى الذى ينطلق
 منه البطل هو الجحيم ، والجزيرة التى يحط عليها قاريه فى الصفحات
 الأخيرة هى النعيم ، ورحلته البحرية الشاقة الممتدة هى المعسكر أو
 الأعراف . لكن هذه الأمثلة الرمزية تستوفى ، إلى جانب نغماتها
 الأسطورية والفكرية والروحية ، كل شروط القصص الواقعى . فنحن هنا
 نشم روائح البحر والشوارع والأزقة والأسواق والميادين ، ونعيش فى
 قلب الإسكندرية التى يعرفها محمد جبريل كما يعرف طاهر بده ،
 ونستخدم رطابة أهل البحر التى تكاد تكون لغة صغيرة قائمة برأسها ،
 وتتابع أسماء القنوت البحرية وتواريخها ، وكثوات الأسماك والطيور ،
 ونستمع إلى نكف من محادثات البطل مع أمه ، ومع زوجته منيحة ،
 ونستحضر فى أخلاننا ولديه منعت ويسرى . كما يقوم على جالسى

الرواية — كلمات طريق — الكتبتن من ناحية ، وتشيع نجته من ناحية أخرى .. لحدتها بجسد البحر بكل دلالاته الواسعة والرمزية ، والثاني هو صوت الغيب الذي يحته على الخروج للبحث عن نجمه — نجم وحيد في الأفق — الذي يرافقه منذ الميلاد وإلى الممات .

ومن خلال وصف دجوب موشى بتفاصيل دقيقة وصور شاعرية نادرة الجمال ن نصلح البطل في رحلته التي يواجه فيها لقطارا خارجية كالأمواج والصخور والرياح وتقلبات الجو والأسماء المترسة ، وأخطارا داخلية كفراية عرقس البحر والجنيات ، والشك في جدوى الرحلة ذاتها ثمة ما ينفرد هنا برحلة بوليسر كما صورها — على أنحاء مختلفة — هومروس ودانتى وبنسون . ونحن نتذكر أيضا صلاح كولردج الهرم ، ووحدة روبنن كروسو وحى بن يفتلان على جزيرتهما ، وشيخ هنجواى في طراده لمسكة الفارلين . والجنة الأرضية التي يبنيها البطل في نهاية المطاف — وهى تبعث صورا قرآنية وأخرى مكرزة في الوعي الأسطوري الجماعى — هى تنويج لهذا الجهد الروحي الشاق ، هذا المعنى الصولى ، هذه الرحلة — بدنيا ونفسيا وعظما — انطلاقا من الميناء الشرقية إلى لقي البحر للصبح .

هذه رواية غير عادية لكاتب غير عادى ، لا يقنا ينتسم فى كل عمل جديد له قمة أعلى من سابقتها .

د. ماهر شفيق فريد

لا يذكر متى ألف العادة ..

كان يجلس على جذع شجرة عند الساحل ، يتأمل تلاحق الأمواج ، ويتطلع إلى ما قد تبوح به من أسرار تغيب عنه ، ويتمنى التعرف إليها . تضاعف الإحساس بالشوة . ثلاثى تماما كأنه لم يكن . حل — بدلا منه — شعور بالترقب والتطلع ، وبالفارق . حاول أن يستعيد نظراته القديمة إلى كل ما حوله ، فلم يوفق . ظلت هناك فى موضع لا يتبينه . لم تعد تستهويه أفنانين المرأة وحيلها ، غابت الدهشة من عينيه ونفسه ، وغابت فى درنشات الجبران . أعادوا الذكريات القديمة ، فامتعت مساحات الصمت . يستغنون بالشهود عن الحكايات التي تكرر سماعهم لها . ألف التجول — بلا هدف — فى أرجاء الجزيرة . يطيل التأمل والتحديث . عرف المواضع والكنائس والسحن . لم يعد ثمة ما يجتذبه ، أو يثير اهتمامه . تحولت كل المشاهد إلى المألوف ، ذوت لحظات الاكتشاف والدهشة ، وحلت الرتابة . تكررت المشاهد وتكررت . حتى التوقعات لم تعد غائبة . ربما يغمض عينيه بالشهود ، فتظل جزئيات المشهد ومنعماته الدقيقة . ما أذهله منذ قدم إلى الجزيرة يراه الآن صورا ثابتة ، يتوقع أن تكون هى رؤيته فى قادم الأيام ..

لم يفلح في كتم الهاجس المتصاعد من داخله . يحيا الشجن والحنين والرؤى والأغنيات البعيدة . يستعيد ملامح اللتين فارقه ، وفارقوه . اخفت مئات الصور من حياته مع مديحة والولدين . لم يحتفظ إلا بصور قليلة ، في المقدمة صورة لها وهي تودعه باكياً . ماذا تفعل مديحة والولدان الآن ؟ هل تزور أمه ؟ وهل تصحب الولدين — كما أوصاها — إلى الشيخ نجاتي ؟ هل ينفذ ليهاب القبلي — برعايته لهم — ما وعده به ؟ ..

عشت في صدره وحشة . تيقظ الحنين في أعماقه ، حنين لم يسبق له معاناته ، أبدع لحناً لم يسمع إليها من قبل .. اكتفى بتأمل الأفق ، في جلسته أمام الساحل . ربما ظل في موضعه منذ بتركه القارئ — بعد أن يردد وراءه آيات القرآن — حتى يأتيه القارئ في المرة التالية ..

ضالت الجزيرة بحنينه إلى بحرى ، أكل الحنين قلبه . لم يشعر بأفسى من نيران الشوق إلى أمه ومديحة ويسرى ومديحة وإيهاب القبانى والشيخ نجاتي والكابتن وغازلى الشبراك والصيداين ونقطة الأنفوشى وميدان المساجد وشوشات التخيل فى طريق الكورنيش . تصاعدت من الظلال العميقة صور لشخصيات ومواقف وأحداث . تاق إلى الملامح والأماكن والكلمات والتفاصيل الصغيرة : حنوة الحصان أمام سراى رأس اللتين ، زحام شارع الميدان ، سرانقات المولد فى أبو العباس ، الشمس على كورنيش الميناء الشرقية ، الجلوس على قهوة السبالة . تنتظره لمديحة ويسرى على الرصيف المواجه لمدرسة

راتب باشا . الأخذ والرد والفصال فى حلقه السمك . حلقة المصلين حول إمام على ترماز فى درس المغرب . التلى بقرقرة اللبس فى الشرفة المظلة على تقاطعات الطرق . حتى التردد على الأطباء ، ومتابعة التحاليل والأشعة ، غلبه الحنين إليه ، ضجت فى داخله مواويل الوجد ، تحركت جذوة الحنين ، وعلت نار الشوق . نسي فى لهيبها حتى أشعة الشمس قبل أن يحتويه ضياء الجزيرة . يتوق إلى الاكتشاف والانفعال ..

الضياء الشامل قاتم ، فلا ليل ولا نهار . غاب الإحساس بالزمن ، وإن يعرف الوقت من أذنه ، من مواعيد الصلاة ، ويكتم — فى داخله — اشتعال نيران الغربة والحنين والأشواق والأشجان والوجد .. ترك لتوالي الأيام شغافه من الحنين ، لكن الغصة ظلت فى نفسه ، لا تغادرها . يشعر أنه يفقد شيئاً ما فى داخله ..

فاجأته نوبة من البكاء ، غاب باعثها . لم يكن منشغلاً — فى تلك اللحظة — بما يمضى به إلى مواضع الحنين . انغل بالبكاء واهتز ، وعلا التشجيع . حاول أن يكتم ما يعاينه ، لكن الرغبة فى البكاء فرضت نفسها ، فترك لها المدى ..

تزايد شوقه لبحرى . الطيور تعود إلى أعشاشها . بحرى هو عشه الذى لابد أن يعود إليه ..

فى بحرى ، هناك بعد ، توقعات تشغله ، يتوق إليها ، أو يخشاها . فى الجزيرة لا يوجد بعد ، لا توقعات ، ولا انشغال بغير

للحظة التي يحياها . حتى لحظته المعاشة لا تشغله . التصرفات تسبق ذهنه ، فيهمل التفكير ..

قال له الشيخ نجاشي :

— كنت تعلم أن رحلتك قد تكون بلا عودة ..

وهو يتجنب عينيه :

— وهل كنت أملك أن أرفض !؟ ..

وضغط على شفته السفلى :

— أن أفعل شيئاً خير من المال ..

وهمس بصوت حزين :

— المال قاتل !!

المال !!

تعرف إلى معنى الكلمة . تسلل إلى أعماقه ، فأحس بالاختناق .

اختفى الغموض والأفغاز المشربلة في نفقات السحر . بدا كل شيء في حجمه وطبيعته . تساوت كل الأشياء ، وكل المعاني . واتصلت اللحظات أيما ، والأيام شهورا ، والأشهر أعواما ، ولا جديد يطرد المال من نفسه . يحرك الدهشة والتوقع والإثارة ..

فطن إلى القراءة بالمصادفة . تكلم الرجل ، وتكلم . ثم دفع إليه بالكتاب يوضح ما غمض . تكررت الإعارة ، وتكرر جلوسه على حافة النهر يقرأ ويقرأ . تعرف إلى ما لم يكن يعرفه ، وصانق الدهشة والأسئلة والانفعال . ثم ضاقت دائرة المال ، ملل لا يدرى بواعثه ، ولا كيف يتجاوزها ..

تتأوى الإحساس بالملل في داخله ، وفي علاقته بما حوله ، حتى لمضنه . عانى خواء مميتاً . ألف دمع العين ، حيناً إلى السفر . يسافر مع الأصوات إلى الأرض البعيدة . إلى الأحلام والذكريات والبرؤى . تتوالى مشاهد البحر والشاطئ والبلانسات وطريق الكورنيش والميناء : قصر رأس التين ، وقلعة قايتباي ، والصيادين وغزالى الشباك ، وحلقة السمك ، وحاجز الأمواج ، ومباني السلسلة ، وشارع الميدان ، وميدان المنشية ، وسراى الحفائية ، والجندى المجهول ، والمشايخ ، والبحارة ، وعساكر الموائل ، والمرسى أبو العباس ، وباقوت العرش ، والبوصيري ، وعلى تمرار ، ونصر الدين ، وميدان المساجد ، ومعهد الأحياء المائية ، والسيالة ، وجودة ، وصفر باشا ، والحجاري ، والمسافر خاتنة ، وما يتفرع منها ، ويحيط بها ، من شوارع وحولى وأزقة ..

لو يغمض عينيه !! يجد نفسه وراء مكتبه ، يجيب ، ويسأل ، ويناقش ، ويتسلم أوراقا ، ويوقع أوراقا . حتى طلبات المترددين على مكتبه ، وإحاحهم ، وتلاطم الأصوات بما كان يضايقه ، تماثلت عنه الغلالات ، فتبدت الملاحم مجلوة . تناسى حتى إن كان المرض — بعد أن يعود إلى بحرى — سيعود إليه . يعانى الآلام التي لا يدرى مصدرها . يجرى التحليلات والأشعة . ينشغل بالتوقعات للقاسية ..

أدرك أنه لن يستطيع العودة ، لكن الحلم ناوشه واحتواه ..

متى يبدأ رحلة أخرى ، جديدة ؟ ..

عاد للسندباد إلى البحر بعد كل عودة إلى اليابسة ..

هذا ما ينلوشه ..

نسى كل المتاعب ، وتعلم أن يبدأ رحلة العودة إلى بلده الحنين ..

عندما اتخذ قراره بالرحيل ، فلأنه بدأ الحل الوحيد . طالت أيام معاناة التوتر والأرق والاستيقاظ في الصباح بصعوبة . قلت شهيتته للطعام . غابت القدرة على التركيز والقراءة . تقضى الذاكرة إلى خواء . حتى القراءة بدت مجهوداً متعباً . فقد سكتة النقص . لم يعد يطيق البقاء في البيت . الجدران من حوله تخنقه . ضاقت عليه الأرض بما رحبت ..

الشوارع الضيقة ، المتعرجة ، المتداخلة ، يصطبغ فيها الهواء المحمل برائحة الملح واليود والحالب والأعشاب ، ويترامى هدير الموج وراء البنايات العالية وتقاطعات الشوارع المعضية إلى الميناء الشرقية وخليج الأنفوشي ، والمقامات والأضرحة في نواصي الحوازي والأرقة ، والبيوت المتلاصقة ، ذات الأسقف المنخفضة ، والشرفات الخشبية ، والنوافذ الصغيرة ، والحيطان المتأكلة ، والملاط المتساقط بملوحة البحر ، والنموه الجالسات أمام الأبواب ، ينشغلن بتقنية الأرز في الصواني الكبيرة وتقشير الخضر والكلام الذي لا ينتهى ، ويرمى على الجدران كومات الغزل والحبال القديمة وقطع القلين ، ونداءات الباعة ، واختلاط روائح الطبخ والقلبي والبراز

المتعفن في الأركان والبول والعطن وبقايا السمك والقطران والمسجابر والمعمل والحشيش المحترق ، ومياه الغسيل والمياه الطينية الزلقة ، والطنائرات الورقية تعلو السماء .. ذلك كله يحياه حتى دون أن ينظر إليه . حتى وشوشات النخيل في امتداد الطريق ، بدت له مألوفة ، ومتكررة ، ومملة . وكان يأكل كل ما تضعه مديحة على المائدة .

لا يرفض حتى لا يضايقها . تساوى مذاق كل الأطعمة في فمه .. ثمة شعور تملكه بأن شيئاً ما ينقصه ، شيئاً لا يدرك طبيعته على وجه التحديد ، لكنه يتسلل إلى داخله بالقلق والخواء ..

أدرك أن الخوف في داخله ، لا يعرف بواعثه ، ولا كيف يتخلص منه ، أنه يعاني ما هو أقوى من المرض ، ولا شأن له بحياته العادية . يشعر أن جسداً آخر ، غريباً ، ولا صلة له به ، قد احتل مكانه ..

حين وخزته الألام في صدره ، ضغط بأسنانه على شفتيه ، حتى لا تظن مديحة إلى ما يعانيه . مضى أمام عينيهِ ضوؤه لا يعرف مصدره . يريق خاطف كالومضة ، ثم حل ظلام وسكون . أخذ وقتاً لتزول ضبابية الرؤية ، وتبين ملامح مديحة وإيهاب وفتاة ، خمن من الباطل الأبيض أنها طبيبة ، لو ممرضة . تبدل الحال من أيامها . ثمة ما قبل وما بعد ..

اعتاد نوبات الغثبان ، والصداع ، والتوتر بلا سبب ، والإخفاق عندما يحيط مديحة بساعديه ..

امتلاً صحوه ونومه بالأنباح ، والأرواح الشريرة ، والأصوات الهامسة ، والنداءات التي لا يدرى مصدرها ، والسنن التي تظهر ، ثم تختفي ..

لم يعد يقدر على البقاء طويلاً في مكان واحد . يمتدد على السرير . يتأمل تكوينات التشع والطلاء في الجدران والسقف . يقف في الشرفة المطلة على تقاطعات الشوارع . ينزل الطريق لغير هدف ..

تجنب السير في شوارع السيلية الصيقة . يفضل الشوارع الواسعة ، فلا يدخلها إلا عند اقترابه من البيت . يمضي — بخطوات متمهلة — في الناحية المقابلة للكورنوش . عند اقترابه من السيلية ، يميل ناحية شارع التتويج . يهمل نواصي الحارات والأزقة في جانب السيلية ، إلى شارع سيدي العمري فيدخله ..

حتى الجالسين على مقهى السوهاجي ، في ناصية الشارع ، أسفل البيت ، لم يعد يعنى بالتعرف إليهم ، ولا بإلقاء السلام . مجرد ملامح متداخلة ومختلطة ، يغلفها الضباب ، وإن التقط صوتاً موزة ، ربما استعاد صورة صاحب الصوت في مخيلته ، ثم واصل السير ..

صعب عليه أن يوضح ما يشعر به ، أو أن يشير إلى موضع الألم . لم يعد يقتصر على موضع من جسده . ربما توصل الصداق قاسياً ، أو لشدت مفص البطن ، أو علا الألم في موضع من جسده . شمل الألم كل الجسد . ليس ألماً بالتحديد ، لكنه حالة من التوتر والضيق والقلق واللامبالاة والتحدى . لم يعد يكتسرت بأحد ، ولا

بشيء ، ولا بأسف على شيء . غاب عنه الإحساس الخاص بالمعاني . وكان يبذل جهداً في كل حركة ، وكل كلمة . حتى الكلمات تخرج من بين شفتيه بصعوبة ..

تردد على المستشفى الأميرى بالشاطبي . ينزل من ترام ٥ في محطة الرمل . يعبر الميدان إلى شارع صفيّة زغلول . يميل من شارع مستشفى كلية الطب . يتطالع — في نهاية الشارع — الأبواب الحديدية للسوداء . يعرف طريقه — عبر الساحة الواسعة — إلى الأقسام الخارجية ..

رفع الطبيب يديه في تسليم :

— الأدوية لا تقيد ..

نصح بطبيب في تخصص آخر ، ربما يتوصل إلى العلة ، وإلى علاجها ..

سأل الطبيب عن الأمراض السابقة ، وعن أعراض ربما أحس بها ، وإن لم يكن يتصور أنها تعنى شيئاً ..

دون الطبيب ما قاله ، ثم أشار بإصبعه . نزع قميصه . مال الطبيب على صدره العاري . نقر بإصبعه . استدار . فنقر الطبيب على ظهره . ثم ثبت طرفي السماعة على أذنيه ، ووضعها على صدره وظهره ..

عاود التردد على المستشفى الأميرى وعيادات الأطباء ومعامل التحليل . لم تظهر التحليلات ولا الأشعة ما يقلق . بدا الأمر أقسى من الصور التي أظهرتها الأشعة والمناظير ونتائج التحليلات ..

قال الطبيب :

— أنت لا تعاني مرضاً عصبياً فأعالجه .. لعلها حالة عصبية ..

وبصيح :

— أذهب إلى طبيب نفسي ..

جلس على الكرسي المواجه لمكتب الطبيب . وصبح الطبيب النونة الصغيرة أمامه . أسند طرف القلم على فمسه . تأمله ببطء متفحصة ، واكتفى بهز رأسه وهو يصمت ..

تحدث عن كل ما يشعر به . احتللت الروايات وتشابكت . لم يتوقف ، لأن الطبيب لم يقاطعه بالسؤال ، ولم يطالبه بالتوقف ..

تناول أدوية وصفها له الطبيب ، ولزم تصرفات نصحه بها ..

انطلق في عيبى مديحة وتصرفاتها ، هو الذي قادته إلى الشيوخ بجاني . يحرص من ترده على الأطباء بالمرض الذي لابد أنه كامن في جسده . لم تفلح الأدوية في علاج ما يعانيه . يشعر بنقل أعصابه ، وضيق روحه في جسده . قل نومه ، فكاد ينعلم ..

حين خلف مسي إدارة الجامعة بالشايطي وراه ، كن قد دس في أوراقه مذكرة نهيه الحق في إحارة طويلة . لم تتوصل التحليلات ولا الأشعة إلى مرض محدد ، هو يصحو ويعمل ويمشي ويجلس ويقرا ويصم ويصنع كل شيء مما يفعله الناس . لكن المعاناة عكست كموبها في جسمه هرا ، وفي داخله شعوراً بالتحلل . يرداد الأكم فلا يقوى على الجلوس في موضعه . يهز واقفاً . يتحرك بعصية . يمشي حطوط . يدور حول نفسه . يتحسس أماكن في جسده . يظهر التلثم .

يقمص عذبيه ، ويقلص ملامح وجهه . إشعاله بالمرض يشغله عن المناقشات من حوله ، ورحام الطلاب من حوله — في إدارة الجامعة — يضعه . الأيدي الممدودة بالأوراق والأسئلة والنداءات والصحب ..

قال للإشفاق في عيني مديحة :

— أمامي سنة أقسم في أثنائها مرتبى كاملا ..

ثم علا صوته بالتساؤل :

— هل أطل أعائى أكثر من سنة ؟!

عندما حاول اللعاط خيط الداية ، التعرف إلى بواعث ما يعانيه ، بدت مديحة حارح إبطار أحراره . تكفئ بتأمل أحواله ، لا تصيفه بملاحظات . يلمح نظراتها المشفقة وهي تتابع انكماشه في نفسه ..

كن نصفا في أثناء اليوم بلا صوت . يصعب التحمين إلى كانت نائمة أم لا . يتأمل الشعر الباعم المسدل على الوسادة ، والعييس المعصتين ، والأنفاس الهائنة ، والملاحم المسممة . يتق أنها تحبه ، وأنه يحنها . حنس تصور ها بأنه صاق يوم للوندين بينهما . أهملت حوقهما الباكي من الحجرة المجاورة . حاول أن يساير تصور ها ، ويسل عليها بمثل الأيام المنصية ، لكن الهاجس تصعد في داخله ، لا يفارقه ، ينقص عليه حياته ..

قالت مديحة :

— دلنتي جارتنا تهاني على شيخ قد تجد عنده الشفاء ..

صرخ :

— هل شكوت لك ؟ .. هل شكوت لأحد ؟!

تكررت فحوص الأطباء ، وتكررت الأدوية . حاول أن يحيا بالاطمئنان لسلامة الأشعة والتحليلات ، لكن الهلوس ، العارض ، المرض الذى لا يعرفه . كان يعلو بالصراخ فى داخله . عشرات الأسئلة اصطفت فى أعماقه ، لكنه عجز عن أن يصوغها فى سؤال واحد محدد . ظل ذهبه فى تنوشه ، وروحه قلقة ، والطمأنينة غائبة عن قلبه . شعر أنه أسير شبكة خرافة ، أو طراحة ، كذلك الأسماك التى تأكلها شباك الصيادين فى الساحل . تصاعد فى داخله إحساس بل حدثاً قاسياً على وشك أن يحدث . لم يحسن صورته ، ولا حدد قسماته . داوم العزلة عن الناس ، والصمت ، وحرص على الإقلال من الطعام . يأكل فى نصف بطنه . ولا ينفق فى اختيار ملابس . وكان يطيل تأخير التوجه إلى السرير . يتشاكل بالفرافة ، أو التلمل ، حتى يتقهره التعب . يحشى للنوم قنوره الكوابيس ..

همس لنفسه — وهو يتأمل مقابر المدارة من نافذة الأوتوبيس :
أيوه وصه يرقدا لها .. هل اقترب موعد رقادك إلى جانبهما ؟ ..

— واصبح أنه لا فائدة ..

ونفث لف صغيرة :

— تعبت !

أدرك عجزه ، وتسالت أمامه كل الحيارات . أكثر من التردد على المعامات والأصرحة ، وإن رفض ربة ساحر له شهرة فى جبل باعسة . شارك فى حلقات الذكر ، وفى الموالد ، لم يعد يطيق البقاء فى مكان واحد . ربما تمشى فى شوارع الحى ، لا يقصد مكاناً محدداً ،

لكه يحلى تقدميه طريقهما . يشغبه الإحساس بأنه عريب ، أو عابر سبيل ، لا شأن للأحرار به ، ولا شأن له بما حوله . أحسن أن حياته تتأكل ، وأن ما بقى لا معنى له . انتحاً — مصطراً — إلى الشيخ نجلى . لم يعد لديه حيلة ..

حنب إليه الشيخ الحلوات ، وفتح له سبيل المناجاة ، وأمد روحه بمعلى الكلمات . تولاها فأعياه عن حبل الأطباء التى أترك فشلها ..
قال الشيخ :

— إذا عرف المرء نجمه ، ووصل إليه حيث يكسب .. اتصل ماضى حياته بما هو قائم ، بملامح الآتى ..
وأحاطه بنظرة مشقة :

— كلما حاولت أن ترى اللحم قبل أن يتقدم بك العمر .. كان ذلك أفضل ..

أردف دون أن يفقد لبتسامته :

— النجوم يقل لمعاتها بتقدم العمر ..

همس بالسؤال :

— وبعد الموت ؟

— عندما يموت ابن آدم يذوى النجم حالاً ويموت ..

وهز سباته فى وجهه :

— إذا أردت رؤية نجمك ، فادهب الآن ! ..

كانت تروعه للتحويلات التى تطرأ على الشيخ فى جلسته على دكة المبلغ بين صلاتى المغرب والعشاء ، فى سيدى نصر الدين .

تصفو عيناه ، وتلتصم ، ويكسو وجهه النور ، ويعمر النور كل ما حوله . ينعكس على وجوه المصلين الجالسين في نصف الدائرة أمامه . يسلمون أنفسهم إلى كلماته ، يستغرقون فيها تماماً ، حتى يملو أدان العشاء ، فتعود للملامح إلى مألوفا ، ويخفت الصوت ..

أنباء من الشيخ هبة . كان يفصل في الحصومات ، ويحجب على المسائل ، ولبي مال إلى العرلة . يكتفي بالعيش — إلا نادراً — على كسرات من الحذر . اشتغل بالزهد والعبادة ، وترك مائر الأثمال . كان على وصوء دائم ، وموقفاً بما عد الله . اقتصررت حياته على إمامة المصلين ، وقراءة الكتب ، وتلاوة القرآن . لا يفرح بشيء من الدنيا ، ولا يأسف على ما صاع منها . فاق أئمة مساجد الحى ومشايع المسافرين في علوم الفقه والفران والسنة والتفسير . إذا فرغ من أداء الفرائض لا يشتغل بوسائل العبادات . وإنما بالتفكير وتحديد النفس عن شوائع الدنيا . ربط قلبه في الله سائر أوقاته وحلقاته . صفى قلبه من الحبيب المائعة لها عن مطالعة العيوب ، فتخلت نفسه بنعائس الأسرار والأدوار . لم يكن يفصح عما احتضنه الله به من قوى روحية وكرامات . اللوح يعنى معادرة الدنيا ، أو زوال الهبة الإلهية . لنحصل الله الحكمة في قلبه ، فانطلق بها لسانه . ربما لحقه الوجد ، وكثر بكاءه ، في دروس المعرب ، على دكة المبلغ ..

شعله الأمر ..

قال له أبوه :

— أنت ابن بحر ..

ارتجفت عصلة فكه :

— كيف ؟

— ولدتك أمك في بلاس .. أصرت على شم الهواء في البحر ..

وكانت في شهرها الأخير ..

وهو يحاول السيطرة على مشاعره :

— هل كان من الصعب إعادتها إلى الشاطئ ؟!

تألفت عينا فيه ببريق باسم :

— صر لك علا قبل أن نصل إلى الشاطئ !

سأل بالمصول :

— أين حصل ؟؟

— بالقرب من جزيرة صغيرة خارج البوعار ..

يتخيل — في جلسته قبالة الجزيرة — ما رواه له أبوه ..

ما النجم ؟ هل هو نجم حقيقى كالنجوم التى تظهر فى السماء

أبلاً؟..

صاقت عليه الأرض . لم يعد جزءاً من العالم المحيط به . لم يعد له نه صلة . لا شيء يحتك لسانه . لا شهوة فى نفسه ، ولا حرص على شيء من الدنيا . استوحش من الناس ، وانقطع إلى الله . يصوم النهار ، ويقوم الليل . اقتصررت حياته على البيت والجامع . يؤذى الصلاة ، ويصمت إلى عطائ الشيخ . طالت صحبته للشيخ مجانى . يجلس — يتأذب — فى حصرة الشيخ . يضع يديه على فحديه كالجالس فى الصلاة . لا يرفع صوته ، ولا يسأل إلا إذا أذن له الشيخ ،

ولا يتناول ما يقدم إليه في مجلسه إلا إذا كانت دعوته كامر . عود نفسه على سماع حتى الهمس من حديث الشيخ ، وعلى رؤية مالا يكاد يبر من إشاراته ، وبلى ما يصدر عن الشيخ في صورة تلميحات ، أو أنه يظهر في عيبه ، أو ملامح وجهه . صار الشيخ في داخله أعلى من نفسه ، يحس مثل حبه لمديحة والولدين . إذا أشكل عليه شيء رار الشيخ في الجامع . يقف على باب الحجر المظلة على شارع السبالة حتى يأذن له بالدخول . يثق أن رؤية الشيخ صادقة ، وتوقعته لا تحتمل الشك ، وطاعته واجبة ، وأمره لا بد أن ينفذ ..

عرف في نفسه — منذ الطفولة — تعطشا إلى درك حقائق الأمور . اعتادت مديحة جلوته إلى نفسه ، فقررت تطول وتقصر ، ينفرع فيها تماما إلى القراءة والتأمل . لا يترك البيت إلا لأداء الصلاة في جامع سيدى أبو العباس ، أو في جامع سيدى نصر الدين القريب . ربما سحب كتابا من المكتبة الحشوية الصغيرة لصق جدار صدر أبو العباس ، يقرأه ، ثم يعيده إلى مكانه . قطع حديثه من المكالمات والرملي ، فلا صله له بموضع غير الجامع ، ولا باحد غير مديحة والولدين ..

راد من فضوله قول الشيخ حين ألح في سؤاله :

— لن يغادر النجم مكانه حتى يأتي موعد الرحيل ..

— الرحيل ؟!

احتصنه بالطرة المشقة :

— رحيلك .. أن نرحل ذات يوم ؟!

احتواه شوق عميق لأن ينفض عن نفسه ما تعانیه من تشوش . داخله الغراء بأنه يذهب بعيدا عن مديحه والولدين لكي يعود إليهم . بعد أن يسترد نفسه ..

بذل همه في أن يفهم إشارات الشيخ وتلميحاته . لا يتكلم ، ولا يسترسل في الكلام ، إلا إذا هز الشيخ رأسه دلالة المتابعة . يثق أن الشيخ يملك من المكاشفة ما لا يملكه أحد من أئمة جوامع الحى ولا شيوخه ، ولا حتى المتفقيين في العلم من أبنائه . عليه قبل أن يبدأ رحلة التعرف إلى الحى ، أن يحصن نفسه للنصبة ، والتحرر من العائق النسيوية . يشعلها باكتساب الصفات المحمودة ، كالصمت والعبادة والزهد والمجاهدة والصبر والرضا والشكر والحياء والتوكل والشوق والتسليم والأنس والمحاسة . شدد عليه بأن يقطع علاقته بالدنيا والناس من حوله ، يفرغ قلبه من كل شيء . يقتصر على الدرائس والنس . يحتج فلا يحظر سأل شي إلا أنه سبحانه . تفتح المعانيق ، وتصل إلى قلبه الانوار والأمرار والإمدادات والرحمة والسكينة ..

ابتعد عن الناس ، وانصرف إلى العبادة . استولى عليه سلطان الحقيقة . حرص ، فهو لا يتكلم في حصرة الشيخ إلا إذا سألته ، أو دعاه إلى الكلام ، ولا يرفع صوته ، ولا يتعلم . جعل الشيخ أسوته ، واتباعه شعله الشاعل ، والمسير في طريقه هدفة الذى لا يتحول عنه . لما أظهر الخوف حين لقطع التيار الكهربى في أبو العباس وميدان المساجد ، قال له الشيخ في لهجة حانية :

— عود نفسك على المظلمة ، لأنك ستحبها طويلاً ..

دارى قلته بابتسامة مستحقة :

— ما أعانيه ليس مرض موت ..

مسد الشيخ ذهبه :

— وهل تكلمت عن الموت ؟ ..

ناقت نفسه إلى عالم العيب . تحول بأحاديث الشيخ ، وما روثه أمه ، ولقاء النجم المتسربل بالعموص ، إلى رغبة حياشة في ركوب البحر . شدد عليه الشيخ ، فلا يعمى إلا بمقدار طاقته الروحية واستعداده . لا يتطلع إلى ما قد يعجز عن بلوغه ، ولا يرهق نفسه بما قد يأتي بنقيض نتائج ..

قال الشيخ :

— أبت لا ترحل إلى دنيا تصيدها ، أو امرأة تتكحها . رحيك للنحت عن إجابات لأسئلة تتعبك ..

كان دائم التردد على المكار . يجلس على الكورنيش الحجري . يتطلع إلى أفق البحر . يحاول أن يقرأ أسرار . ينلى قديمه الحافيتين في الفراغ ، يلتذ برداد الأمواج المتطير . يرقب اللانسات والغاليك والطيور وعازلي الشباك وهم يسدون القلوب في العرول المتآكل . مجرد الجلوس بلا عمل ، يهبه الإحساس بالهدوء والسكينة ، لا يشغله ما يحرق في الناحية المقابلة من الطريق . يطيل الوقفة في أيام الشتاء.

يختار لوقفت البوات وهطول الأمطار واصطدام الأمواج بالحواجر الأسمنتية ، ولنداعها إلى الناحية المقابلة . تعروه مشاعر تتمازج فيها القوة والخوف ، والطيور السوداء تعوى وتصرخ في السماء التي تغطيها السحب المتكاثفة ..

ما لدى يحبه البحر هي أعماقه ، وأملوجه ، وأفقه المتزامية ، وعموضه ؟ ..

لم يكن قد رأى أعماق البحر . في ذهبه الكثير من حكايات عرائس البحر والجنات والحوارق والعوالم المسحورة . لم يكن على ثقة مما قرأه وسمعه عن أعماق البحر ، وما إذا كان ذلك هو ما حدث بالفعل ، أم أنه تعبير عن خيال جميل ..

أربس عبد الحافظ معوض شيخ الصيادين ، وصديق أبيه ، تحدث — ودخان الترجيلة يحتلط برائحة الأسماك في الحلقة — عن لطمنان أرواح الموتى للحياة في قيعان البحر ، وعن مخلوقات ليست كالتي يراها في الحلقة ، ولا في شارع الميدان . مخلوقات تآكل الأسماك والنبات والبشر ، ومخلوقات تصعق من ثلمه ، فلا يتبقى منه حتى الرمام ، ومخلوقات تلتقط شخصاً بكامله ، فيتلعنه دور أن تستخدم أنفاسها ..

قال أبوه :

— لماذا هذه للمهبة الخطرة ؟!

في لهجة تسليم :

— هذه حياتنا ..

صحبه أبوه إلى الأنفوشي وهو صغير ، ليعلمه السباحة ، عليه الحبوب ، فرفض التزلزل . حتى الصفعة التي هوى بها أبوه عليه صدغه لم تبدل رأيه ..
قال له أبوه :

— أنت ابن البحر .. لكذك لا تحاول ركوبه ..

كان يكتفى في العلاقة مع البحر بالقوف — أو الجلوس — على الشاطئ . ينأمل صيد السمارة ، وصيد الطراحة والجرافة ، والنسوارس تهبط على الأمواج ، تلتقط بمناظيرها الأسماك المتناثرة ، وغزل الصيد منشور على ظهور الفوارب الصغيرة ، والهياكل الخشبية للسلالسات في الفرق^(١) ، وصواري السلالسات النعيدة ، والتقاء أفق البحر وأفق السماء .. هل هو النهاية ، فلا مرنيات بعدها ؟ ..

لما دعاه أبوه ليرافقه في رحلة إلى الجزيرة بعيداً عن خليج الأنفوشي ، رفض ..

لم يكن يتجاوز شاطئ البحر إلى داخله . الكوريش الحجري ، أو رمال الشاطئ ، هما عتبة صلته بالبحر . كان يجسجى المجازفة والمجهول ..

تكرر جلوسه على مفهى الصيادين . قبالة حلقة السمك . ينأمل حركة طبع والنشراء ، والطناني ، والأواح اللنج ، وعربات الهريشة ، والأعمدة الرخامية ذات الطرار الروماني ، والمسقف دى الكمرات

..
الفرق = ورش لمراتب

الحديد ، والكرامى ذات القيعال المجدولة من الخوص ، وضربسات الرد على الطاولة ، وصيحات لاعبي الكوتشية ، وروائح البحور والمصبل والتمباك ، وصريز عجالات الترام في انحناء الطريق ..

ظل مشدوداً إلى فكرة الرحلة . تحولت الرغبة الصبائية إلى عزم ثابت لا يستطيع دفعه . ولد الجسم يوم ولادته ، لحضة ولادته . البداية الواحدة تمضى إلى النهاية الواحدة . هو قادم من نجمه ، ولاند إلى يذهب إليه ..

نبت الطريق وحيدة ، لاند أن يمضى فيها كي يعود إلى مديحة ، والولدين ، ويعود إلى نفسه . لم يكن يملك ما يفعله ..

يقن أنه لا يملك إغشاء سر الرحلة ، إلا أن يأمره الشيخ . اكتفى الشيخ بما قال . لم يحاوره إلى الآن بل يحبر من حوله باستعدادات الرحلة ..

لم يكن ما يطله أسراراً ولا وصايا . هو يطلب ما ينقذه مما يعاقبه ويؤلمه ، ويعينه على جباة أيلمه ..

هل هو هاتف حقيقي ، نداء عليه أن يلبيه ، أو لها ريفة مـحر قيدته ، فلا يملك التخلص منها ؟ ..

رافقه إيهاب المعاني إلى باب الحجر دات السف العالي والأصواء الناهرة . أسلم نفسه لطمائية جاورت الرمان والمكاس ، فعزلته عن كل شيء ..

شد على إيهاب فلم يتحدث إلى مديحة عن الطريق الوحيدة ، أعصب إليها طرق متعددة ، مسدودة . لم يكلم مديحة في سة الرحلة .

الخوف — وربما الفضول — يطرح الأسئلة : لماذا ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ .. أسئلة لا نهاية لها ..

— لا معنى للرحلة إذا صحبني إليها أحد ..

ثم وهو يحاول السيطرة على أفعاله :

— شرط الرحلة أن أسافر بمفردي ..

قال إيهاب القباني :

— ما دامت هذه طريق الشفاء .. دع لي أمر بإلاعها ..

وتهدح صوته بصديق مشاعره :

— أنا أخوها .. وهي تثق بي ..

ثم بنبرة ملونة :

— ولك أيضاً ..

وقال له الشيخ وهو يودعه :

— امص في الطريق إلى نهايتها .. لا تعد قبل أن تلتقي بجمك !

استطرد الشيخ متذكراً :

— لا تخض البحر بقارب يحجز عن القهم ..

رفع عينيه مستأثلاً :

— هل القارب هو الذي ..

ولم يكمل كلامه ..

كان واقفاً ينتظر على السقالة الموصلة إلى البلاطات والتونسلات
والعلايك والدجاجل ، إلى اليسار ، المسجد الصغير ومعهد الأحياء
المانية وقلعة قايتباي ، وإلى اليمين ، امتداد البنايات إلى السلسلة في
مدى الأفق . تفرقت العوارب منتعدة إلى الميناء الشرقية ، وإلى خليج
الأنوشى ، وبعيدا إلى ما بعد الدو غار . تنتهي إليه أصوات الواقفين
على اللسان الحشبي الممتد داخل البحر : صيادين وغارلى شبك
وبجاري مسر . وثمة شباك منشورة لتحف على حبال ممدودة بين
المراكب الراسية على الرمال ..

قال له إيهاب القباني :

— سأصحبك إلى الكائنات ..

رمقه بنظرة متوجسة :

— من هو ؟ ..

— هذا هو اسمه .. الكائنات .. لا يعرف الناس له اسماً آخر ..

وهز قبضته في تأكيد :

— لأن يدك لهذه الرحلة سواء ..

— هل هو من رجال البحر ؟

علا صوت القباني ضحكة معطلة :

— قل هو البحر نفسه ..

له كبد احتواء . في حوالى الخامسة والخمسين . قامة طويلة
أقرب إلى النحافة ، وبشرة سمراء اصططعت بلون نحاسى ، وأنف حاد
معوس قليلاً . تتخلل رأسه شعيرات بيضاء ، تطل من عينيه السوداوين
العميقين نظرة هائلة ، ويعلوها حاجبان مثل هلالين صغيرين ،
ويتدلى شارب رفيع على حاسى فمه ، وثمة أثر جرح معتمد من أسفل
الذقن إلى العنق . يرتدى قميصاً أسود ، شى أكمامه ، فكشف عن
ساعدين قويين ، وبطنهما قصيرا ، ينتهى عند الركبتين ، وحداء من
الكارتش . لاحظ تدخل سواد فى بياض أسنانه ، فحس أنه يكثر من
التدخين . وكان يمس يده فى حبه . بخرج ساعة بكنيسة . يتأمل
الوقت ، ثم يعيدها ..

— الكابتن ؟

— أيا هو ..

وأخرج — من حبه — مشطاً ، تخلل به شعره ، وأعيداه إلى
موضعه ..

حذجه الكابتن بنظرة متأمل : وجه مستطيل أبيض ، وإن مائل
إلى الشحوب . عيان وسعتان ، بطل منهما حرر . أنفه الصعير لا
يشق مع اتساع عييه ، وغلظه شفتيه ، وثمة شامة بنية أسفل حده ،
والسمة الأمامية ناتئة بصورة واضحة ..

— لما كلمنى إيهاب علك تصورتك أكبر منأ منى ..

هز رأسه بما يعنى عدم الفهم :

— لماذا ؟

وهو يهرش قفاه ، ويحذجه بعينين متأملتين :

— ما عانيته يكتفى لحياة شيخ ..

انتزع ابتسامة فائرة :

— أنا سنبله قمح داخلها حواء ، وإن ظلت الفشرة متماسكة ..

أغمض عينيه لدلالة التعبير ، ثم اتجه إليه بنظرة متسائلة :

— ماذا تريد أن تتعلم ؟

— كل شئ .. كل شئ عن البحر ..

تأمله بنظرة متفحصة :

— كما أرى .. لن تصبح صياداً ..

فى لهجة تعزيرية :

— أريد أن أركب البحر ..

انعكست الدهشة فى نظراته :

— بحار ؟

أراد أن يروى ما يعنيه ، لكن أمر الشيخ أسكنه ..

— مجرد أن أتعلم الحياة فى البحر ؟

ارتد فى لهجة بانرة :

— أريد أن أركب البحر ..

تأمل الكابتن رجلاً عارى الصدر ، وصع شعلة النار بالقرب من

فمه ، ونفت . انطلق أمامه نسان من اللهب . قال :

— تعرف المسافر خانة ؟

— أمر بها أحياناً ..

— اسأل عن قهوة حودة .. تجننى بين المغرب والعشاء ..

تبع المفاشات والفصال والمساومات والتعاقد على الشروبات وركوب البحر ، وتوقعات الحرارة والبرودة والأمطار والرياح والوات ومناطق الوفرة . اكتفى بالإصغاء فلا يتدخل . يشغل الرجل فى أحاديث لا تنتهى ، تشمل كل ما رآه فى السر والبحر . يروى قصص البحارة ، والرحلات البعيدة ، والصيدان الذين غابوا نوالى لارتفاع الأمواج ، والنوات ، والأسماك المتوحشة ، وحيوانات الماء . يجيد غزل الحبوط بما يحتبب السامعين . يعيد للحكايات فى قعدات نائية ، يصيف ويخنف ويحور . يسبب بعض للحكايات إلى نفسه ، بين من كلماته وتصرفاته أنه قد رأى الكثير ، وعاش الكثير من لحظات الانفعال . غرائب وجوارق يقسم أنه لم يكن يصنفها لولا أنها جرت معه ، ورأها رؤية العين ، وعاشها ، وعانى تأثيراتها . وكلفت الأمور تستوى فى نظره ، فهو لا يأسف على شيء ..

لم يكن يشعر حتى بوجوده . كان يحيد الحكى ، ويتكلم بنبرة واثقة ، فهو بحير الملتئيم من حوله على أن يكتفوا بالإصصات والموافقة . يبدأ بالعبارة التى تلت الأشياء . ربما التقط حادثة ليست هى البداية لما يروى روايته . مجرد طرف حيط يصله ببقية الحبوط ، بما يدفع إلى المتابعة . يحذر الوقفات . يثير الأسئلة . يشعله للصمت الممتن والمنايع . ربما دخل المفهى مجموعة بحارة ، تلو أصواتهم لبعة لا يفهمها ، يتجه إليهم للكائن باللغة نفسها ..

ربما تردد — وقت الظهر — على قهوة فاروق . يقوم من جلسته

فى القهوة إلى لمح قدوم حذارة . يرفع إصبعه ، ويبتلو الشهدير ، ثم يدفع أسفل البعث يحاول المشاركة فى حمته ، ليكسب ثواب يشبع له فى آخرته . خطوات ويعود . قبل أذان العصر يلتقى السلام ، ويمصى . يلتقى السلام ، أو يرد عليه ، أو يهز رأسه رداً على هزة رأس مماثلة . يلى الدعوات فى دحل القهاوى والذكاكين . ربما طال سيره مع صديق التقى به على الكورنيش . لم يعرف من كانوا معارف الأرجل أو من بينه وبينهم صداقة . يحدث الجميع كأنهم لصنفاء قدلمى . ينهى اختلاف المفاشات — أن احدثت — بمثل يسدو وجهة نظر مناسبة ، وتصلح للاعاق . وكان يشرذ أمام المفاشات التى تتناول أموراً دينية ، ويكتفى بإداء صلاة للجمعة فى أبو العباس ..

أدهشه أن الكائن يستطوع التعرف على جنسية بحارة السفن الأحبية ، أو السياح ، بسحبهم المختلفة ، وطرقاتهم التى ربما تغيب عنه هو نفسه . الملامح والتصرفات والإيماءات . حتى تعبيرات اليدين بينى تحميمه بتوقعها ..

صحبته الكائن — بعد أداء صلاة للجمعة — إلى متحف الأحياء المائية . تتعلا بين الأحواس الرجالية ، تسبح فيها أشكال وتكوينات ولون من الأسماك لا حصر لها ..

رار الكابت في بيته . يطل على شارع الدخاحية المتفرع من
شارع الميدان . في أسفل دكاكين لباع الذهب والعطور والأقمشة
والعطارة ، وثمة أصوات متصاعدة : بداءات وصيحات ودقات خافتة .
طالع على باب الشفة حلقة من الأصداق والفراق . وفي المدخل
علقت هيكلا محبطة لأسماك ، ولأحساد تشبه أحساد البشر . واستندت
إلى الحدران رماح ، وحراش . وعلى الجدار ، لوحة صياد طرلحة
يلقى شبكته ، وفي امتداد الجدار ، فوق باب الحجرة الوسطى — هيكل
لسمكة هائلة ، لعنها القرش ..

نأهى — من وراء الحجرة القموارية — صيحات أولاد وبنات ..

قال لملاحظته الصامتة :

— حلقتي من ثلاث نساء ..

وأطلق من فمه ضحكة متوترة :

— لأهل الله للزواج من أربعة ..

كل يتصور في كلماته سحرية ، لكنه أدرك أن الحديث التي

يتحدث بها حقيقة ..

لم يسأل الرجل عن وظيفته ، وإن عرف من كلامه أنه يعمل

— باليومية — في رصيف إصلاح السفن . يتكلم عن البواخر الهائلة ،

وعمليات الترميم والإصلاح ، وتحويل البواخر إلى حردة ، ووسائل

الإفقاد ، ولتنشال السفن العارقة . وهم أنه يجيد تشغيل أنواع

المراكب ، البلاس والوتس واللبش والفلوكة ، ويجيد صيانتها
وإصلاحها ، وربما ابتكر قطعاً بدلاً من التالفة ..

قلب الكبت أمانه ألوماً هنلاً يجعل بصور المحيطات والبحار
والحيات والدرافيل وأسماك القرش والأسماك العادية . حتى أسماك
الريبة الصغيرة طالع صورها ..

حين سأل عن عدد الرحلات التي ركب فيها البحر ، أغصص
عينيه في محاولة للاستعادة . ثم هز رأسه دلالة عدم التذكر ..

دعاه إلى أكلة أم الحلول بالحناش . نصحه بأن يكثر من تناول
الاستاكوزا أو الجمبرى . قال لانتسامة متخيلة :

— لا أقصد الجنس .. العائدة الأهم أنها تمذك بشجاعة مطلوبة ..

استطرد كله يوضح ما قال :

— لن نصحبك إلا لشجاعة في ركوب البحر ..

وهرش دقته بطرف إصبعه :

— أصارحك بأن عملي في البحر دفعني إلى التطاهر بما لا

أقوى على احتماله ..

وارتعش صوته بالانفعال :

— لما ماتت أمي لم أستطع أن أظهر حزني لفقدائها ..

ولرأى حفيده :

— فكرت في أن أبكي .. لكنني تملست . كنت قد قلت

للصيادين إن الرجل الحقيقي لا يبكي مهما حدث !..

أدله ما يعرفه الرجل عن الكثير فى السماء ، والبحار ، والمحيطات ، والأعماق ، من الأسرار المثيرة . بدت السماء — فى صوء معرفته — بلا حدود ، والبحار بلا أعماق ، والأسرار المغلفة صفحات فى كتاب مفتوح . خيل إليه أن الرجل قس أعماق البحر إلى نهاياتها ، وقرأ أسرارها ، وتعرف إلى كل ما تحويه من أسماك . بدا على معرفة بكل الحرر ، ومناطق الوفرة والجندب ، والشواطئ من الأنفوشى إلى الملووم ..

كلمه عن طرق الإبحار ، ووسائل الصيد : المنارة ، والكناز ، والبوصة ، والشرابة ، والطراحة ، والحرافة ، وعن سذر الأنواء ، والأسماك التى تستطيع الطيران ، وتتسلق الشجر ، ونحدث للصدمات الكهربائية ، وتؤدى شوكتها إلى الموت ، حتى وهى ميتة ، حتى الأسماك النافذة : الشرعوش . المعازل ، البيلريا ، السبوليا ، الكحلة ، وكلمه عن الحيوانات المائية ، الهائلة ، تبتلع البلاسبات والواهر الكبيرة بمن فوقها . وعن الأسماك والطحالب والقوقع والأصداف والقاذو والسلاحف . وكان ينصح بطحالب علاجاً للأمراض ، وطردا للديدان ، ويحب صحن الأعشاب وخططها . تتحول إلى مرهم نداوى الجروح . ويحد فى الملح غولاً يدمر كل ما يصل إليه . الدود يأكلنا بعد الموت ، أما الملح يأكلنا فى الحياة . يأكل حتى جذران اللبوت والأثالث والقصيدان الحديدية ..

فرق — للمرة الأولى — بين مواعيد الأنواء وقوتها . يستمع إلى انقول : نوء ، فبستدعى الريح والمطر والبرد القارص . نوء المكسة

فى ١٧ نوفمبر ، تستمر خمسة أيام . قاسم فى ٥ ديسمبر ، تستمر خمسة أيام ، الفيصة الصغرى ، ٢٠ ديسمبر ، تستمر خمسة أيام . عيد الميلاد ، أو الفيصة الكبرى . ٢٩ ديسمبر ، تستمر ١٢ يوماً ، العطنس ، ١٩ يناير ، تستمر ثلاثة أيام . الكرم ، ٢٨ يناير ، تستمر سبعة أيام . نوء الشمس للصغيرة ، ١٨ فبراير ، تستمر ثلاثة أيام . السلوم ، ٢ مارس ، تستمر يومين . نوء العوة — ما بعدها نوء — ٢٤ مارس ، تستمر ستة أيام ..

كان الكائن يملك قرار الدلول إلى البحر ، أو لزوم البر ، ففضل البلاسبات على الشاطئ . يعرف قوة الدواب قبل مجيها . يطبل تأمل السماء ، والنصت لصوت الهواء والريح . يقول فى هدوء :

— اركبوا البحر ..

ربما تبين ملاحه عن التائر وهو يقول :

— لا تركبوا البحر ..

ينزل للرجال البحر ، أو يمتعون عن الصعود إلى البلاسبات . كنماته وصايا يحب تبعيها ..

روى إيهاب العيسى عن مواجهته لهبح البحر ، إلى حشى الآخرين التصدى لتقلباته وأحواله ..

قال الكاتب إنه لا ينكر من أطلق عليه التسمية للمرة الأولى ، لكنها النصف به ، كأنها اسمه الحقيقى . حتى فى البيت كانوا ينادونه بها . وكانت هى التسمية التى يقدم بها نفسه . عرف أن أباه كان نوء سيالة إلى حدودها مع رأس النين ، والمنطقة التى تلى ميدان أبو

العالم . ورث مهارة أبه ، وإن لم يرث مهنته . تواصلت أعوام ركوبه البحر . يسافر إلى النواصي والمدن البعيدة . يعود مجتلاً بالحكايات ، وبما يعبر الصناديق على أيامهم . لاحظ أنه لم يبدل أرتدائه للقميص والسطلون . يكتفى — في الأيام الباردة — بوضع مناشية العائنة من قماش قلع المركب تحت القميص ..

قال الكائن :

— إن مياه البحر ليست مجرد شيء نستعمله ، أو نستمتع برؤيته ..

بها حياة ..

واتحه إليه بعينين متأملتين :

— هل تحب البحر ؟

ارتبك لمفاجأة السؤال :

— هل هناك من لا يحب البحر ..

— أقصد أن يصبح البحر حياتك ..

أصبت — بالدهشة — لما رواه إلهاب الغاني ممن أن للكائن

أوصى بأن يدرس — بعد موته — في مياه البحر . البحر بينه الحقيقي

الذي لا يتصور — حتى بعد الموت — أنه يفارقه ، وأن تأكله الأسماك

لتي يحبها أفضل من أن تأكله الديدان التي يكرها ..

قرأ في كتب الجغرافيا العربية ، وكتب الرحلات : عجائب

المخلوقات ، حصة للدهر هي عجائب البر والبحر ، حريدة العجائب ،

أثار البلاد ، حديث السنن القديم ، سبب عصى . فقرأ حكايات

البخارة أحمد بن ماحد ومفلول والسندباد والنساء المغلفات من شعورهن

إلى الأشجار ، يرددن القول : وق واق .. تبارك الله الخلاق ! .. إذا أثار المشهد من يحول فصلهر . لفظي الانعاس في الحال . أهمل الصفحات التي لم يجد فيها ما يهمه ، أو لا يفهمه . يتأمل ما يجد أنه يبيده في رحلته . تشابكت المشاهد واحتللت : أكلة للحوم البشر ، يعلقون من يقع في أيديهم منكساً ، يقطعونه ، ويأكلونه .. تبين تصدر النار من فيه وديره ، فحرق كل ما تلقاه .. حيوانات هائلة الأحجام والأشكال ، تصرب المراكب بنديولها ، فترقبها .. حبات تتلعق الأفيال ، وتنتع كل ما تصادفه : البشر والأسماك والقوارب الصغيرة بما تحمله .. طيور تعطي أسرارها وجه الشمس ، ترفع الناس في منافيها لو محاليتها .. سلاحف ضخمة ، إن لم تغادر أماكنها ، يتصور من يراها أنها جريرة فوق المياه .. يركبن ثمر في الأعماق ، تقذف حممها ، تتلعق المراكب والجزر والشواطئ ..

عرف جواب السؤال : ما سر هم الكائن لحصائص الأعشاب ،

حين لاحظ تردده على نكاكين سوق الترك الغريب من بيته . يدخل في

مناقشات ودعابات ، ويصرخ صوته بالعصب ، ويعطو بالصراخات

المقهقة ..

ظل على حرصه بأن يخفي باعث الرحلة في نفسه . اكتفى بأن

يحدث الكائن عن رغبته في الرحلة ، وعن الأعراض العريضة التي لا

يترى سرها . أحفى حتى بصائح الشيخ بحتى . بدأ فكاس محبا

للحياة ، فهو سيرفض فكرة الرحلة — إن عرف باعثها — من

الأساس ..

انزلق — ببطء — من جانب القارب ، حتى لا يتأثر الرذاذ ..
تقدم في المياه . تلقت نحو الكباش في وقفته على الشاطئ لما
غطت المياه ساقيه . عاود التلفت عندما غمرت المياه بطنه وصدره
وعنقه . توقف تماماً ، واتجه إلى الكائن بنظرة متسائلة . أشار إليه
الكائن ، دلالة أن يسمح ..
دار حول نفسه دورة سريعة . حرك ذراعيه وساقيه ، بما يتيح
لجسده العوم فوق الماء ..
كان يتأمل البحر ، يحاول تخمين ما يحدث تحت سطحه ، سواء
كان هائناً ، أم تلو أمواجه ..
وحك جبهته بظفر إبهامه :
— البحر ليس هو السطح .. في الأعماق عالم لا يقل صخباً عن
عالم الأرض ..
وقلب حاجبيه :
— عدم رؤيتنا لما تحت الماء لا يعنى أنه غير موجود ..
ومط صوته ربما ليؤكد المعنى :
— البحر صديقنا .. نركبه ، ونصطاد منه ، ونسبح فيه .. لكن
صداقته غير مصبوبة . إبه مثل الأسد الذى لطمأ إلى مربيه ، ثم
ثنين غدره بعد فوات الأوان ..

طالبه أن يختبر من أمر البحر بنفسه : أحواله ، وطرق الصيد ،
وصناعة القوارب ، وكيفية تسييرها ، والعوص ..
افتر همه عن ابتسامة مشقة ، وهو يلحظ تنلى قدميه في الماء :
— ربما وجدت سمكة شقية في رحلك ما يغرى بالعض !
ثم لون صوته بديرة جادة :
— لا تتحدع بهدوء البحر .. هناك للقناديل ..
حدثه عن الأجسام الهلامية المتناثرة على امتداد الساحل ، تحرق
الجلد بلامستها له . حتى شبك الصيادين تمزقها ..
لم يستطع أن يتحلى ميلين وموارغ وأبيرة . رهص تصور حتى
مدى عرائس البحر والحبات ، كما في الحكايات التى قرأها ، واستمع
إليها . كانت له قد تحدثت عن عرائس البحر ، تعرى صحاياها
بالتشو الجميل . يقترب من حيث جاء الصوت . تجددته الدوامات
القاسية إلى أعماق البحر ، فلا يعود . حتى حكايات السندباد لزمت
الباسمة وسطح البحر ، ولم تهبط إلى الأعماق . تحدثت صور التحيل
في غابات وأحراش وصحور وبراكين وأسماك صغيرة ، وهائلة ،
الحجم ..
حين دفع إليه الكباش بالكراسة الصغيرة ، ساعده على قراءة
مفرداتها لحظ الواضح المشكول ، ربما ليعيه مس عاء القراءة
الحاطنة . كل مفردة لها ما يقاها من لغة ، ميم ، البحرة والصيادين :
مدخل المياه = البوغار .. الحبل = لبان .. ربط أطراف الحبال =
صنترضة .. الصارى الكبير = جراندى .. أحد صوارى السفينة =

ميران .. الصارى القريب لمقدمة المركب = تراكيت .. للعود الحشوى
لربط الشراع = قازيه .. قطعة الحطب لدفع المركب فى المياه الصحلة
= المدرة .. أسفل السفينة العاطس فى الماء = قربه .. قطعة معدنية
ثبتت فى حافة سور الغارب ، وتستخدم لتثبيت المجداف = الركباب ،
أو الجاليه .. طرف المرساة الحطائية الشكل = ترساق .. إنزال
المرساة إلى أعماق الماء = فوندا .. سد شقوق ألواح المركب =
قلقط .. جسم عائم فى الماء لإرشاد المراكب = شمندورة .. الإنحار من
بقطة ما والعودة إليها = بولطة .. عودة المركب إلى الوراء = ميه ..
ملازمة المركب للشاطئ = التزكى .. البرواز الحشوى ، أو مر
الحدال ، أو الثاين ، تطلق به أوصاف الرسمو لحملية السفينة من
الاحتكاك المباشر بالصريف الحرسائى = العدر ، التكنية .. المياه
الخريفة = الثمور .. اليمين = السنق .. الشمال = السفالة .. اسحب
= بيرة .. لمسك = أجاتنا .. الدفة = الصمان .. سطح السفينة =
كاورته .. مقدم السفينة = للروة .. مؤخرة السفينة = الأث .. عجلة
الهبادة = دوما .. أداة توجيه السفينة = دفة .. عمود نقل الحركة من
الماكينة الرئيسية إلى الرافص = عمود الرافص .. الهلب =
المحطاف .. الأخر أو السهابة = الإباندا .. أحد حاسى السفينة =
لاندو .. يمين لأخر = سحق ألاناندا .. القارب الصغير = فلوكة
أو كوتر .. القارب الصغير السريع = كيك .. القارب للحارى =
لش .. القارب الشراعى الكبير = يستخدم خاصة فى صيد السودين =
نوسو .. القارب محبوب للطرقيين = ويلر .. للمركب الكبير

بالأشعة والأكة = النلاس .. تقوب الشباك = العاجة .. السمك الكبير
= العر .. السمك الصغير = الدور .. طلى الشراع وربطه =
استحه .. إرخاء حبل حتى لا ينشر الشراع = للسكه .. حفص شئ ما
فى السفينة = مانيه .. حواجز ضد الأمواج = مولص .. ارتداد
المركب ، أو تغيير اتجاهه ، أو سحبه = هاله .. استعداد المركب
للإبحار = لسطه .. الأمر برفع شئ = إيصا .. الإدى بمخالطة أهل
المركب لأهل الشاطئ = براتيك .. الاستفادة من الريح المواتية =
بوجى .. الاستفادة من الريح المعاكسة = قورصه .. السير بالسفينة
الشراعية فى حط متعرج = التليط .. فراش معلق كالأروحة =
هيك .. فراش يرفد فيه البحار = يطق .. حاجر من قماش الحيام =
ورده صولنه .. رئيس الملاحين ، أو الملاح المكلف بتشغيل الأشرعة
= يلكجى ..

قرأ ص للطائر الهائل ، يهبط على راكب السفينة . يأخذه بين
مخائنه ، ويطيئ إلى حيث لا يدرى أحد ، وربما رمى به على إحدى
الجزر المتناثرة فى البحر ..

حذره للكائن من جيات البحر . إذا تنبهت إلى تردده ، أو خوفه ،
تفاوت عليه ، فلا تتركه إلا بعد أن تحيل حمده تقوباً . وتحدث عن
جبة إذا سبقت بطرتها بطرته ، مات من فوره . وحذره من سلاحف
بحرية تحيد الاختفاء والتسلل . إذا تأكدت من ركوب البحر بمفرده ،
أحاطت به تنهشه ، لا تنقى حتى العظام ..

عرف الكثير من حكايات البحر ، والمواني ، وعرائس البحر ،
والصيادين ، والأسماك المتوحشة ، وتقلبات الأحوال ، والدمار الذى
تسببه الموات ، لكن البحر ظل — فى بآله — غامضا ، محاطا بالرهبة
والغموض والرؤى الباهتة ..

قال الكائن وهو يتفحص السمائة بين أصابعه :

— هذا نوع من السماء تكفى بقعة هم لإسقاطه ..

ومط شفته السفلى ؛

— لكن طعمه أقل حلاوة ..

كان قد تنبه إلى ارتطام السمائة بالقارب المقلوب . مد يده

فتناولها :

— لم تحاول أن تهرب !

كان قوس قرح يطو السماء الصافية فيما عدا تنف من المسحب
النبيصاء ، المتناثرة ، وتكسرات الأمواج تستراى على الصخور
القريبة ، وجحور حيرتها الكابوريا ، وقناديل مينة ، وبقايا أعشاب
وطحالب ، والطيور تلمع كالومصات السريعة فوق المياه . تلتقط
الأسماك وتعلو ، وثمة فركة تجر الطراحة فى عومها المتناطى .

تعلم كيف يحفظ بالغارب سليما ، أيا تكن الريح والأواء التسي
تواجهه . التأكد من سلامة معدات المركب ، ومعرفة حركة الريح
والسيارات ، ومواعيد الموات ، والاضمئنان إلى سلامة النوصلة ليعرف

إلى أين يذهب . تعلم كيف يزل من الغارب فى الأرض الصحلة .
يجنبه بحيل إلى الشاطئ ، ثم يرسط الحبل بوند معروس فى الأرض .
وتعلم كيف يقبس عمق المياه بالتحديق فيها : طغو الأعشاب
والطحالب ، وحركة أسراب السمك ، وتباين الألوان بين الشعاعية وكثافة
الزرقعة . عرف حركة المد والجزر ، ونورات هجرة السمك ، وردود
أفعالها ، وتأثير التيارات ، وتقلبات الأمواج عليها ، وانعكاسات
الاعماق فى اختلاف ألوان السطح بين سماوى واررق فاتح واررق
دلكى . كل لون يبين عن اختلاف العمق ، ونوع القاع ، وما يضمه
من أسماك وأعشب وطحالب ، وأمكن التجمعات والوفرة والجذب .
تعلم كيف يمسك بالدفة ، وكيف يديرها . حذره من أنه إذا تاه بالقرب
فقد يعضى إلى حيث لا يعرف أحد ، ولا يعرف هو نفسه ..

حتى نشر الشراع وطنيه ، تعلمه . حين يبدأ رحلته لسن يركب
سوى لش ، لكن الرجل حرص على تعليمه كل ما يتصل بالبحر ،
لأن ذلك هو ما طلبه ..

صرح بالأنم — فى اليوم الأول — لتفلس فى سماعة الساق .
حرك الساق ومشط القدم وهو يتأوه . فقد القدرة على السباحة . انزعجه
الرجل من الماء ، وذلك سماعة الساق بسرعة ، حتى اضغى التقلص ..
كانت تعزو ركبتيه — فى بدايات التعلم — رعشة ، تهتز فى فلا
يعوى على اسكتها ، وحدلاها ، وبهوى به الى اسفل . بكم الصرحة
فى فمه ، ويبدل جهدا للسيطرة على جسمه ، ويعتنى الحلاص من
الموقف على أى نحو ..

أندى ملاحظة ، فاعتبرها الكائن أمراً مألوفاً . ميل الغارب إلى لجانب ، تعلو المياه إلى حافته ، فيبدو كأنه يفرق ..

ألف السباحة ، ومجال الرؤية : أفق المياه اللامتناهي ، والبلانسات المتناثرة ، والشرائط الرمادية الساحلي يبين — عند اقتربه من الشاطئ — من البيوت المتلاصقة في امتداد الطريق ، من انحناء الطريق إلى سرى رأس التين ، إلى انحنائه في دوران الترام . أذهله السمكة الكبيرة ، تلهم ما يصانها من أسماك صغيرة ،

ثم نواصل العوم ..

قال له الكائن :

— هذه هي الحياة .. لكل يأكل الكل .. حتى تأكلنا الأرض في

النهاية !..

لمح نما رواه الشيخ نجاتي . لم يجد في كل من تحدث إليهم من سعى إلى رؤية النجم . أدوا عدم الفهم ، فأمسك عن الإفاضة . ما رواه الرجل من خصه به . سره الذي يحصه . الشيخ وسيط بين مصدر السر وبينه ..

حذره الشيخ نجاتي من توحش النجم . إذا جاء ، فمن الصعب أن يتبأ بما يحمله ..

هز رأسه بما يعنى للفهم :

— أنا أمتلك عند أمواج البحر ..

كان الكائن يعرف اتجاه الغارب دون بوصلة . ينظر إلى موضع الشمس ، وحركة الأمواج . ثم يشير إلى الاتجاه الصحيح ..

قال لملاحظته المتسائلة :

— هذه خبرة عمر .. هل تحتاج إلى بوصلة للسير في بيتك ؟..!

وتهدج صوته بصديق مشاعره :

— البحر عدو ليس كذلك . ليس مجرد مياه وسماء ومراكب وأسماك . أنا أسأله وأناقته .. وأتلم منه ..

وألقى برأسه إلى الوراء مغمض العينين :

— للبحر موحود من قبل أن تنشأ الأرض .. والبحر يصل إلى

كل مكان ، ويحتاج إليه كل البشر .. وأسراراه — حتى الآن — لا

نهاية لها !..

ولحاط جبهته بأصابعه :

— لودعت رأسي أسراراً كثيرة ، ثم أغلقت عليها ، وقذفت

بالمفتاح في البحر ..

ثم في لهجة تأكيد :

— تستطيع أن تتعلم الكثير من البحر ..

ورثت على شفتيه ابتسامة :

— قبل أن أعزل ركوب البحر ، كنت أتمنى أن أموت في

للميق البعيد ..

وهز رأسه :

— كنت سأدفن في المياه حسب القوانين ..

وتداخلت في صوته بحة :

— السمك أفضل من الدود ..

تمتم بما يشبه الهمس :

— أطل الله عمرك ..

اتجه إليه بعينين متأملتين :

— تحب البحر ؟

قال :

— طبعا ..

— ينبغي أن تخشاه أيضا .. لا تكرهه .. وإنما تخشاه ..

أضاف في لهجة مشاركة :

— للبحر مثل الأب ، نحبه ونخشاه ..

— الصياد المحترف يشعل أن يمثل العلق ليكسب من بيع

للشروة .. الهوى ربما أعاد الأسماك التي اصطادها إلى الماء ثانية ..

فتزع لبسامة هيئة :

— أنا لا هذا ولا ذاك .. أنا أتعلم ..

هز رأسه مؤمنا :

— صيد السمك غية ..

وطرقع بإصبعين :

— لكه علم وفن كذلك ..

وحججه بنظرة طويلة ، كمن يتأمل وقع كلامه :

— سموة الصيد لا تعيبك .. لكن العية نطلب الحب ..

لم يسأل إن كان هناك باعة لأدوات الصيد غير تلك وكالة

الليوم . امتلأت بالأحولة وعلب الكرنوز والقصيات والسيارات ،

واندلقت على الرصيف مجموعات النوبارة والحيوط البابلون والحيال

وعمارات الفلين وتقالات الرصاص والإسفنج وبراميل القطران ..

في المرة الأولى ، اشترى البوصة والسرة والطعم ، ثم اقتصو

ما يشتره — فيما بعد — على الطعم وحده . علمه الكاس كيف يحس

أحبات الحيوط ، فلا تقطع وهي ترتفع بالسمكة . لكل منطفعة انواع

من الأسماك ، ولكل نوع خيط يستخدم لصيدها ..

قال الكائن :

— الآن ، نبدأ الصيد ..

وأردف في لهجة مهونة :

— صيد السمارة لا يحتاج للاعتدال عن الشاطئ ..

نثر قطعاً من الطعام في الماء ، راقب اندفاع الأسماك نحوها ،
تدفع ، تلتقط الطعام وهو يهبط إلى القاع ، أو وهو يحوم على السطح .
يستخدم الأسماك الحبة والمبشدة والحمص والصغير ، أو الطعام
الصناعي ، أو العجين . ربما تقطع السمكة المتوسطة الحجم قطعاً
صغيرة . يغطي السمارة بالطعم ، فلا يظهر جزء من السمارة ، بعدد
السمكة عنها ..

ترك الحيط ينساب بين إصبعيه ، وطرح النوصة بقوة . اتسعت
دوائر الماء فور سقوطها

كان يرقب أسراب السمك وهي تلتهم الطعام المتناثر في الماء ،
بطفو على السطح ، أو تلتقطه الأسماك وهو يهبط إلى القاع . يصير
على اهتزاز النوصة في يده . يحرق في اجتذاب السمارة . يظل في
جلسته حتى يطمئن إلى ما علق بالسمارة ، فيجتذرها . السمكة لا تحاول
التقاط الطعام بمحرد رؤيتها له . تعرف الحذر . بالبات في سكور
سطح البحر ، ربما أفصت على الطعام إذا تحرك الموح . لم يعد
السطح حصيرة . ربما لاعتبت الطعام مثملاً يلعب الفط العار . تناوشه .
تتركه ، وتعود إليه ، قبل أن تقدم على انتهامه . إذا بدت السمكة
— من شدة جذبها — كبيرة ، عليه أن يرخي الحيط لها ، فلا تجذب
الصيد نفسه ، أو تمزق الحيط ..

قال الكابتن :

— صيد السمك ليس سهلاً كما يبدو ..

وتنه لنذلة على أنفه . ذئها بيده ، وأردف :

— بعلمك الصبر الفصل مما يطعمك السمك ..

ثم في لهجة ذات معنى :

— تحتاج إلى صبر كثير في رحلتك ..

تأمل السمكة وهي تتنفس في السمارة ، وهي تهتز في المشنة ،
ثم تهدأ حركة الرعيف واحتلاجة الحيشيم ، وقطاء تألق العير . لم
يلح الماء العالق بجسمها في إغفاء سكور الموت الذي ران عليها ..
أدنت منيعة فرحها للأسماك التي حملها في العلق الصغير :

— هذه أجمل أكلة لأنها من مجايب يدك ..

همس بالنسائل :

— هل يعق على البيت شخص آخر !!؟ ..

— الأسماك التي اصطادتها سارتك معها أجمل ..

وزمت شفيتها باسمه :

— لينك تكفي بالصيد .. فهو مجلب للبركة ..

لم يكلمها في أنه دبر — في نفسه — السفر ..

قال الشيخ :

— صيد السمك حلال ..

وحرث لصناعه على حيات الممبجة :

— الحرام هو الميتة والدم ولحم الخنزير ..

ألف طبايع السمك في تعامله مع الطعام . ثمة من تقترب من
سمارة المدلاة ، وتبتعد ، ومن تدور حوله دورات متتالية ، ثم تنسفل

بما لم يتبينه ، أو تبذلها سمكة كبيرة . ومن تدفع نحو الطعم للمعري ، فيجذبها . وكان يصيغه أن الطعم لا يلتقط سوى الأسماك الصغيرة . يشعر كأن السارة قد التقطت صيدا ، يجذب البوصة إلى أعلى . يطلق أب مفتاطة لروية السمكة الصغيرة وهي تحاول الإفلات من السارة العالقة بعنقها ..

تعلم الحرص بالممارسة . لا تحدث اهتزازات ولا دولابات ولا أصوات تحيف الأسماك ، وتدفعها إلى الفرار . مجرد الدوامة الصغيرة التي تحدثها سقوط السارة الحاملة للطعم . يضل في حلسة الصبر ، حتى تهتز السارة في يده ، فيجذبها . تعلم كيف يمسك للسمكة : يصعظ على عينيها بسيانته وإيهامه ، أو يشل حركتها بإمساك الخياشيم ..

أحسن — ذات صباح — بارتعاشة خفيفة ، كلها اهتزاز الصدمة الكهربائية ..

قال الكاتب :

— إنها من السمك الرعاش ..

ثمة جسم — لا يعرفه — علق بالسارة . مالت البوصة في يده . تشبث بنهائيتها ، وجذب الحيط . زادت البوصة في ميلها . أخذت هيئة القوس . ثمة ما هو أقوى من سمكة عادية . قاوم جذبته بإمساك جانبه الغارب بأصابع منقصة ، وشد السارة باليد الأخرى . لحا إلى قوة اليدين ، وجذب ..

قاوم الجسم مندفعاً نحو القاع . اضطرب — لكى ينجو بنفسه — أن يترك البوصة كلها ، فعاصت في الماء . لم يعد بيده شئ ، وجبا بحياته ..

عرف مواسم الصيد : البورى في أغسطس وأكتوبر .. السبارس من أوتل أغسطس إلى أحر سبتمبر . السردى في سبتمبر وأكتوبر .. الشرعوش والكحلة من أول مايو حتى أواخر نوفمبر .. المورة من منتصف يونيو حتى منتصف سبتمبر .. البطاط في يوليو وأغسطس .. الكابوريا من يوليو حتى آخر سبتمبر .. عرف أن أبدأ موسم الصيد في مارس وإبريل ومايو . هذا هو موسم التفتيح ، ترهد فيه الأسماك الطعام ..

لم يكن يخاف من البحر ، لا من اللوات ، ولا الأعماق ، ولا التيارات ، ولا الدوامات المتلاحفة . وكل على دراية بمواعيد المد والحرر ، والتيارات البحرية . يحس التوقعات من ملاحظة الطواهر المبكرة : تغير اتجاه الرياح ، تكثف السحب الداكنة ، صراخ للطيور وتحليقها في فوضى . تعلم متى يظهر الطير ، ومتى يحفى . تشعشعة العصافير تنعالي في الفجر ، وعند الغروب . حركة العرب والصغور واللوامس والبط نرداد في تلك اللحظات . هجرة الطيور تنح — في الشتاء — من الشمال إلى الجنوب ، ثم تعكس الرحلة في أول الصيف ..

لم يكن الرجل يصنع العزل في البلاط قبل أن يلقى نظرة عليها،
يطمس إلى اتساع الثقوب ، أو صيغها ، حلوها من التمرقت . ينادي
بنقلها إلى البلاط واستعمالها ، أو وضعها بين أيدي عارلي الشباك
في شاطئ الأنفوشي ، يرنكون الثقوب والمواضع المتبرئة . يلصق
أذنه بفج البلاط ، ينتصت إلى أصوات الأسماك ، ويحمس حركتها ،
قبل أن يلقى أمره بإلقاء الجرافة في الماء ..
قال الكائن :

— أنا لا أعلم الحياة من الكف ، وإنما أعلمها من الحياة نفسها ..
ورشق نظرة ثانية في عيبيه :

— علمنى البحر الكثير . من المهم أن تتعلم من البحر أنت
أيضا ..

الصيد هو أفسد الأوقات لصيد المياض . يلقى الرجال الجرافة
في الميناء الشرقي . يشرون الشبكة على المدى الأوسع ، الحفنة
الأوسع بسحب الحبال المتصلة بالشبكة بعد أن تسفر إلى آخر ما
يأمن لها الغلب المخطط بها ، تهطل أطرافها عاتقة بالماء . كل رجل
يسلم طرف العزل إلى جاره . يسلمه إلى ثالث . كل جديسة تسحب
الجرافة مسافة إلى الشاطئ . وكان يتابع موطن مصلحة الموانى
والمصايد ، يفتشون على الشباك ومدى صلاحيتها ، البلاط وملاصمته
للصيد . يتكئون من وجود اللوحة ، ورخصة ركوب البحر ..

كان يلتصق بالواقفين في دائرة غير مكتملة حول الجرافة الملقاة
على الشاطئ . يلقها الرجال ، فضمتلى الطاولات بما كانت تحمله من

تموجات القصة . أنواع مختلفة من السمك : بوري ومرجان وقراميط
ومحرات وشحري وبربوبي ومياض ونيس ومورة حصراء . تهدد
الأحجام الصغيرة ، البسار ، من الثقوب ، وسساقط الكبيرة في
تقلعها إلى الأرض ..

حرصت مديحة — ومعها مدحت ويسرى — أن تقف على
الكورنيش الحجري وهو يشارك الرجال نشر الجرافة ، وسحبها .
ارتدى رى الصيادين : الصديري المخطط بصعوف الأزرار
المتوازية ، والسرول الواسع ، وعلى رأسه طاقية بيضاء من النيل ..
دمه خجل لما صمت أصابعها على شعبها ، وقذفت إليه بقنة .
تلفت حوله ليعرف إن كان قد رآها أحد ..

عادا إلى البيت في تنأهى أذان العصر من أبو العباس . قالت
وهي تتأمل لشمس ظلال الأصيل على الجدران :
— صيد الشارة أسهل ..

— أشاح بيده :
— يا دوب يملأ بطنا في أكلة واحدة ..
وتكلف إيشامة متوودة :

— عمل للجماعة أجلب للرزق ..

ركب — للمرة الأولى — بلاط للصيد في عز الليل . صوء
اللمبات حول السفينة يحتك أسراب السمك ..

كان الكائن يعيب على الصيادين إنهم يضيئون ثقوب الغزل ،
تصطاد أمهات الأسماك ، لا تتعد منها حتى البسارية الصغيرة ..

قال :

— نحن نصيد الأسماك لأكلها ، لا لنسلك بها أسلانا ..

ولاح في عينيه كدر :

— توسيع ثوب الغزل يعنى الحصول على أسماك توضع على موائد الطعام ..

وانعكس انفعاله للعاصب في ارتجافه أهدبه :

— لو طلوا على طريقته في الصيد ، فسيحلو البحر من السمك ..

وكان يرفض الصبغ بالديناميت . نطل ثيلته الطويلة على اشتعالها حتى تصل للقاع . تتأثر بانفجاره صخور القاع وكهوفه وشعابه وكل ما يحيا في المنطقة التي يمتد إليها تأثيره . ربما امتد التأثير إلى الابلاتس فوق سطح الماء ..

انفجارات الديناميت تتصاعد — مكتومة — من القاع ، تحرك الأمواج — لثوان — في مساحة تتسع ، ثم تنوى ، وتحتقن ، ثم تطفو الأسماك الميتة على السطح . كل الأسماك في منطقة الانفجار تموت ، وتطفو على السطح . يشر الرجال الشبكة على أوسع مساحة . تنترف الأسماك الميتة ، الطافية ، وما لم تتأثر بانفجارات القاع . ربما نللى الرجال أعلى أجسادهم ، يلنقظون الأسماك الطافية برلحات الأيدي ، ويلقون بها في المشنات ..

قال للكابتن :

— نحن صيادون .. وعملنا صيد السمك ..

لاحظ أن ملامح السمك لم تكن مثما كانت عليه عند صيدها بالسلارة ، أو بالحرافة التي تستعسى عن الديناميت . ثمة تقطيع وتورم وانثاق دم وجحوظ أعين ..

كان يعرف أن الصيد بالديناميت ممنوع . ما أدهله أن الرجل أهمل المنع في كلماته . مستقبل البحر هو ما يزعجه .. — لو أن لكل لحاوا إلى الصيد بالديناميت ، فلن يكون اليوم الذي يخلو فيه البحر من الأسماك بعيدا ..

وعلا صوته بالتأثر :

— أنا أرفض حكاية أحيى اليوم وأمتى غدا .. فلأحيا اليوم وغدا ، ولأحيا الناس أيضا ..

بدا للكابتن منذرا وهو يروى ما حدث للصيدا عيد الرشيدى . ألفى إصبع الديناميت دا القنيل المصاد للماء . لم يعطس إلى قصر القنيل ، فاحترق بسرعة ، وفجع قبل أن يبتعد البلاس . استحات المياه فوهة بركلى . علت الأمواج من تحت البلاس وحوله ، ولتعت بالعليل . تخلفت الثوب البلاس ، وتكرمت الأكواح فى جانبيه ، وغمرت المياه . انتثر الرجل إلى قلب الماء الساخ . أطلق صرخة وحيدة ، ثم احتفى ..

لم يكن الكابتن يلحأ إلى بوصلة ، فهو يعرف الاتجاه من مجرد النظر إلى الشمس . يصع يده على جبهته . ويروى ما يرس عيبيه ، ويرنو ناحية الشمس . لا يطيل النظر ، إنما هي النعانة سريعة ، ثم يعض يده وعيبيه ، ويحدد الاتجاه الذى يمضى فيه البلاس ، فلا

بحظي في التنبؤ بحالة البحر ، ولا حركة الموح ، ولا مواعيد هبوب الرياح والنوات . وكان يفاخر الصيادين باكتشاف مناطق صيد ، ربعاً لا تبعد عن الإسكندرية . لكن هزات العياب عنها — لجندبها — تطول ، فيشير بالعودة إلى المواضع القديمة ..

أدهشته مصارحة الرجل له بأنه يركب البحر منذ أعوام بعيدة دون أن ينزل للمياه . يكره السباحة ، وإن أحادها . لا يسلم جسده إلا إلى مياه الحمام في البيت ..

تسائل وهو يتابع عمليات تكريخ طبالى الأسماك إلى عربات النقل ، تمصى بها إلى الحلقة : كيف يبتذ بعصه أو أدرك أنه نسي السباحة والبلباس يولج العرق ؟!

عرف أنه سيكون بمفرده ، عندما ينطلق به الغارب في اتجاه مجمه . احتار الطراحة في صيده . يحيط الشبكة بالحبال . يصل الحبال بحل طويل ، بحر به الشبكة من مكانه في القارب ، أو الأرض التي قد يستقر فوقها . يحدس معنى نقل الطراحة وهو يسحبها من الماء . لغلات السمك من الثقوب الواسعة ، الممرقة . أهمل النصيحة المحدرة : أنت لا تحسن إلقاء الشبكة ، فيهرب السمك ! . تعلم كيف يرتق العزل إلى نهراة الشباك ، أو تقب . يرفو قماش الشراع إن مرقته الرياح . يصل الحبال ، فتظل تعمل أطول فترة . يربس الأدوات والمعدات ، فلا يصل للطريق إليها وقت الحاجة . يحرر الطعام حتى لا تسده الحرارة وتوالى الأيام ..

حين ارتدى بذلة العوص للمرة الأولى ، حتى أن يعيد حركته ، أو تنهط به إلى اللعاف . ارتداها ، درعها . ثم أعاد ارتداها ، ووضع نظارة العطس ، والرعاف . دس الرعاف في الماء ، وحرك قدميه داخلها ، حتى أخذتا وصعهما . وأمسك بسنقيّة الصيد وسكين العطس .. قال للكائن :

— هل سبق لك العوم في مياه عنبة ؟

في بيرة تملئ :

— أنا سكندري وإن كنت لم أنزل البحر ..

— عموماً .. السباحة في البحر أيسر من السباحة في النسيهر ..

مياه البحر أقل كثافة من الماء للعنب ..

أشار إلى ما حملته على جسده ، وفي يده :

— إن غصت .. لن أستخدم كل هذه الأشياء ..

قال للكائن :

— أنت ترتدى بذلة التكريب .. قبل أن تبدأ المباراة ..

نصحه بأن يجيد السباحة أولاً . العوص لا يحتاج إلى مهارة عالية . بالذات إذا كانت المياه مالحة ، صحلة . يطاو فيها الموء دون مجهود . لكن : ماذا لو أنه هذ إحدى الرعفتين ؟ . لا بسد أن يعود بدونها . لذا أن يحب السباحة . حرره من بعد الأوكسجين . إذا لاحظ

توقف المؤشر ، أو اقترابه من نقطة الصفر ، فإن عليه أن يسرع بهزه ..

قال الكابتن :

— من الأفضل ألا يغطس الشخص بمفرده .. وجود زميل يساعد

على المواجهة في لحظة للخطر ..

أردف كالمستكر :

— لكن الشيخ — كما قلت لى — نصح بأن نضمنى إلى الرحلة

بمفردك ..

قبل أن يصع النظارة ، للنقطها الكابتن بطرفى إصبعيه :

— النظارة التى تفيد غيرك قد لا تفيدك ..

وأشار بإصبعيه إلى جانبيه وجهه :

— وجهك طويل ، ولابد أن تكون النظارة مثبتة على الوجنتين

جيدا حتى لا يتسرب الماء إلى العينين ..

تأمل النظارة . ساعده فى تثبيتها على وجنتيه . قال :

— خذ شهيقا ..

النقط نفسا صميقا . أشار للكابتن ، فأغلق أنفه وقفه ..

قال الرجل :

— عندما نفوس ، تحمل فى صدرك كل ما تحترقه من

أوكسجين ..

ثم وهو يكور يده :

— حاول ألا تنفقه بسرعة ..

عاود الكابتن النقاط النظارة بطرفى إصبعيه . تأملها . قال :

— هذا البحار يعنى أن النظارة ثبتت على وجهك جيدا ..

ومرت فى صوته رنة تحذير :

— ستلحظ أن كل شئ تحت الماء يزداد حجمه بالنظارة حوالى

ثلاث ..

وخالف صوته المحذر حنو واضح :

— لابد أن يكون الشوركل^(١) أيضا فى مكانه للصحيح أمام أنفك

حتى لا يدخل الماء إلى النظارة ..

استل الكابتن السكين من الجراب الحلى . استخلص محارة

ملصقة بتجويف داخل الصخرة الصغيرة ..

لاحظ أن الرجل يستخدم للسكين فى استخلاص المحارات من

قواقعها وصنعتها ..

مرة وحيدة لأخطأ استخلاص المحارة ، فلامس السكين بطن يده.

فنجست قطرات من الدم . امتصها بشفتيه ، ثم امتد بالسكين إلى

المحارة بعيد استخلاصها ..

وهو يربت صدره بيده :

— هذا درس تعلمناه من المصايفة .. يجب أن نحتر ونحزن

نستخدم السكين ..

ونصحبه باستخدام قفاز من المطاط ، لئلا يحمى أصابعه من خدوش

الصخور ..

(١) الشوركل = أنبوبة التنفس

هون الكابتين من شعوره — عند العطش — يضغط على جبهته وعينه وأذنيه . قال :

— هذه ملاحظات البداية ..

ثم غاب الإحساس بالضغط ..

تسرب الماء من الشوركل . ابتلع — غصبا عنه — كمية منه .

لم يعد — فيما بعد — يتنفس . كان يحس الماء عند فمه ..

العوص بالقرب من السطح ، يتيح له رؤية الأسماك . آلاف الأسماك المنبالية الأشكال والألوان . أشعة الشمس تنعقد من خلال الأمواج الهادئة . تضئ حواف المكال . حتى الرمال والأعشاب والطحالب والصحور والكهوف والتقوب ، تبدو واضحة في ضوء الشمس . تعرف إلى أسماك لم يكن رآها من قبل ، تسكن الكهوف ، والتفوق طعمية بين الصحور . وثمة ومصات فوسفورية تلتصق في الظلمة الشديدة ..

تعلم كيف يولحه انقباض عضلات القدم أو الساق . بسيط العصلة ويقضها في ثوال . ربما امتدت إليها أصابعه بالتدليك حتى يروى الانقاص . تعلم كيف يواجه تقلص الأصابع والباعد وعضلات البطن وعضلات خلف الساق ..

يعطى الإشارة للكابتين الذي يمسك بالحبيل المتدلى مسن سطح الغارب . يجذبه الكابتين — بسرعة — إلى سطح الماء . وكان إذا شعر بصيق في نفسه ، صعد إلى السطح . تأكد — من خلال النسخ بالتشوركل — أن المياه خرجت كلها قبل نفسه . يستعد لصبحة

الكابتين بالأحبال التنفس ، وبقياء ماء في الشوركل : الاحتياق هو ما يتولجه لو أنك أهملت وجود الماء . وكان يأذن — إذا أرهفه ضغط البطارة — كما علمه الكابتين — بتسرب هواء في البطارة ، يقابل للصعق داخلها . ويتوقف عن العوص إذا وجرته الام الألس . رمز — كما حذره للكابتين — واحة الإغماء ..

أدلهه العصب الذي أحلى له الكابتين ملامحه ، لما صعد إلى السطح :

— لا تستسلم لعوية اللقاء تحت الماء ..

قال :

— لم أشعر باحتياق ، ولا إلى حاجة للهواء ..

رماء بنظرة مؤبدة :

— العوص ليس نرولا إلى الأعماق فقط .. لكنه صعود إلى السطح أيضا .. مسافتان لا مسافة واحدة ..

ووشى صوته بتفاخر :

— زمان .. كنت أعوص إلى أعماق البحر في عز الظهر ، ويطل عوصي حتى يحل للطلام ..

روى انزعاجه لرؤية سمكة هائلة الحجم ، تنتقط الأسماك الصغيرة ، وتواصل السير ، كأن ما حدث جزء من نفسها ..

قال الكابتين وهو يضحك :

— كل الأسماك تجد طريقها إلى موطننا في النهاية ..

حرب استجابة جسده للحياة في الماء ، التيارات والأمواج
وصعق الماء . عرف كيف يحس أنفاسه وهو يغطس في الماء ،
ودور أدوات غطس ، أطول مدة ممكنة ، ثم يصعد لانتقاط الأنفاس ،
ويعوص ، ويصعد ، ويعاود المحاولة . يكرر الشهيق والزفير . يحتفظ
بالأوكسجين في صدره أطول مدة ، ثم يطرده . يعاود المحاولة ، ثم
يعيدها . ثم يمتص أكبر ما يستطيع من أوكسجين ، ويعوص . عرّف
كيف يقلل التحد في الأعماق ، حتى لا يبعد الأوكسجين بأسرع مما هو
متوقع ..

قال الكابتن :

— لا تأخذ كمية زائدة من الهواء قبل الغطس .. ربما يؤدي ذلك
إلى الإغماء ..

واستعداد لهجته المحذرة :

— حاذر أيضا من استنشاق الهواء تحت الماء ..

ثم وهو يهز رأسه :

— أنت لن تجد هواء .. وإنما سيقفحك الماء أنفك وفمك

ورثتيك .. وهذا أخطر ، لأن معناه ..

وعبر بيديه عن معنى الموت ..

قلب الزعانف المطاط بين يديه :

— هذه الزعانف ستكسبك ثقة في السباحة والعوص .. أنت بها

سمكة داخل البحر ..

وفال في حسم ، وإن طئت لهجته على ودها :

— المهم ألا تكون للزعانف واسعة حتى لا تكزه العوص .

نعم كيفية استخدام فدع الغطس ، بطارة البحر ، الشب ، ركل ،
الزعانف ، بندقية الصيد ، السكين ، البذلة ، حزام الانتقال ، براديس
ما في الحقيبة للغماس . شئت السكين في الجراب المتكلى من الحوام ،
ويش قدميه في الرعفتين ، ويصل أنبوبة التنفس بحزام الغصاع ..

ألف رؤية أعلام الغطس للرقاء . العلم يشير إلى وجود غطاس
— تحت الماء — بالقرب منه ، يحرص ، فلا تقترب يده من الجحور
والكهوف والفجوات . ربما عصته سمكة كبيرة ، أو نعال أحد الحساد
لون المكان . أفلح في تبيين ثعابين البحر ، حتى وهي تكسو جلدتها
بلون مداخل الكهوف . حذره الزحل من أسماك هائلة الحجم ، تعد من
بحار بعيدة . إذا تركها المرء واصلت طريقها . لما إذا حاول النظر
ليها ، فإنها تهاجمه . وكان يحرص — في صعوده إلى البلاتس —
على النظر إلى أعلى . فلا يصطنع رأسه أسفل البلاس .

صعد بوقعه كانت ملتصقة في الصخور لحدده لتراعه .

قال الكابتن :

— هذا بلح البحر ..

وابتسمت عيناها :

— بلح الملوك ..

وتشهد :

— الكيلو منه بالنفس العلاني ..

وزم شفتيه ، فبدت الكرمشة فوق الشفة العليا :

— أهم شيء أنك تحسن استخدام المكين ..

استسم الكائنات لدهشته وهو يصعد إلى السطح ، بيده زجاجات وعبوات يدخلها . تصور أنها — كما تقول الحواشيت — تحمل رسالته من مرض بعيدة . فصها الكائن على أحده وقصاصب وطلاسم واسماء من بحرى ، ومن أحياء ومدن أخرى :

— البحر طاهر .. لكن الناس يصرون على توسيخه ..

وهز رأسه دلالة الاستياء :

— هذه أعمال للترابط والتفريق وتحقيق المراد ..

يستريح عقب كل مرة يعطس فيها . ربما ظل نصف ساعة مسترخيا على ظهر البلاس قبل أن يعاود العطس . حذره الرجل من الدورل المنوالى . الإجهاد ليس هو النتيجة الوحيدة المتوقعة . ربما عانى أمرا صا تصيب القلب ، أو الرئتين ، أو الصد كله ..

قال :

— ماذا لو أنى نزلت إلى عمق أكبر ؟ ..

قال الكائن :

— لا شيء .. كلما علت طبقات الماء ، زال ضوء النهار حتى يتلاشى ..

أردف بذيرة محايدة :

— لن تجد بعد مائتى متر إلا اللطلام ! ..

احتلط كل شيء حوله ، وتدخل ، وتثير . أحس بأنه محاصر فى دومة عائية من المشاعر الصاعدة ، بما يشبه الاختناق يصفط على

صدره . عاوبته — كومصات — كطلحات اليأس والسأم والرغبة وفى الموت . فكر فى أن يعطس فى المياه . يكتم أنفاسه داخلها فلا يصعد ، لكن أوامر الرجل الحادة ، المتوالية ، كانت تعيده إلى نفسه ..

قال للإشفاق فى عيني مديحة :

— عندما تتحقق الحياة بالخوف فلا بأس ..

فالت مديحة :

— أشعر أن قلبى يقف .. لا أسترد أنفاسى حتى تصعد ..

حذره الرجل من أن الخبرات البحرية لا تكتسب بالصيد وحده ، رلا بالعوص فى الأعماق . البحر عالم آخر ، ديبا أخرى ، لها حفر أبيتها وتصاريصها وحياتها ..

اتحه إلى أفق البحر :

— ربما تبدأ للرحلة وتنتهى دون أن تحتاج إلى العطس ..

ولوما برأسه مؤمنا :

— وربما تضطر إلى العطس فتكسب السلامة ..

حين روى للشبح ما تحقق له من قدرة على الغوص إلى أعماق لم يتصور أنه بلفها ، قال له الشبح فى لهجة دات دلالة :

— أنت لن تعرف البحر إلا إذا سحبت فيه ..

وحقق فيه بعينين تفتشان عن معنى معتد :

— المهم أن تصل فى غومك إلى الجوهر ..

أصاخ سمعه لترامى صوت محرك لنش فى مكان بعيد . تلفت حوله ، يتأكد من أن أحدا لا يتبعه . لن تكتمل الرحلة إلا إذا كس بمفرده . ذلك ما ألح به الشيخ نجاشى ، وعليه أن ينفذ . رود الفارب بكل ما قد يحتاجه فى رحلة لا يترى عدد أيامها . أطعمته لا يتغير مذاقها بطول الوقت ، وحرارته مملوءة بالماء العذب ، وأقفاص فاكهة ، وعصائر ، وموقد للطهى ، وسكين لا تصدأ من ملححة البحر . وخيط ، وإبر ، وديبايس ، وبطارية مكبرة ، وبطارية ، وعلب لدوية . وحبوب ملح ، وحبوب " درامامين " لدوار البحر ، وأمسال صد التسمم ، ومرهم لعلاج التسلخ والحروق ، وكمية من الكتف ، وطوق نجاة ، وسترة نجاة ، ومصباح بطارية ، ومعدات لإصلاح الفارب : العادوم والمنشار اليدوى والبلطة والمنقلب والأرميل وحديدة القلطة . حتى السلاسل والحطاف الحديدى ، والدلو لرفع المياه المتسربة إلى الفارب ..

لهي كل خطوات الرحلة ، قبل أن يكلم مديحة عن طبيب شهير يعالج مثل حالته ، فلا شأ للرحلة بما يعانيه . لجأ بعينه إلى إيهاب القبانى ، فطمأنها ..

ترك الكابتن لنفسه اختيار الفارب الذى سيبحر عليه : بلايس ، لنش ، لوتسو ، فلوكة ، دحل ..

قال الكابتن :

— أنت تريد قارباً تركب به البحر ، فلا شأن لك بوجهه .. هو قارب وسأوصى المعلم رحيم أن يجعله من ذلك كله ..

حدثه الكابتن عن حبرة المعلم رحيم القديمة فى صناعة السفن ، مهنته التى ورثها عن أبيه ، عن جده . كل العائلة تعمل فى صناعة لمر اكب : التلاسل والعلايك والداخل والكورات والتوتسات .. قال الكابتن :

— أفصل أن تركب البحر على الفارب .. دلجلته ربكة للتحربة الأولى :

— أليس ثلاثش أسرع ؟ ..

حججه بطرف عينه :

— فإذا لم تحصن إصلاح أعطاله ؟ ..

فوت الملاحظة :

— أى قارب تفضل ؟ ..

— البلايس يحتاج إلى جماعة ..

وتلاعب بقطعة دحل فى يده :

— وللفلوكة لا تصلح للعقيق ..

واستطرد كالمتهن :

— أقترح أن تصعب " لوتسو " .. يمكن أن نفوده بمعدرك ..

وأطال النظر إليه ، كأنه يتأكد من فهمه لما يقوله :

— للعلايك واللوافس .. تعملان بالشرع .. وبالمجاديف أيضا ..

تأمل عملية التصنيع فى الفرق . تدق فى التعرف إلى المواد التى يصنع منها القارب . أشجار النخ المفقوعة ، وبلوطات الأخشاب مكومة على رمال الشاطئ ، وحبال الكتان ، وعلب البويات والغار فى الصناديق المفتوحة . تأكد من عدم إصابة الخشب بالسوس . طرّقه بفتونم صغير ، يتعرف على الأجزاء الصلبة والأجزاء الحواف . صحن الكابت إلى " المحرطة " ، يتأكد من أن الخشب الذى تقطعه هو الذى اختاره . وضع نصائح الكابت فى يده . تابع المعلم رحيم وهو يصنع هيكل القارب على قاعدة خشبية ، ثم وهو يصنع أول جزء من القارب : الماريزا الممتدة بطول القارب ، تحيط بها بقية الأجزاء . أفاده نوافى الحطوات فى التعرف إلى أجزاء القارب : الصارى ، الفلع ، النعة ، القاعدة ، المقنعة ، المؤخرة . الألوام الخشبية تتجلى ، تتلصق . القلاطى يسد ما بين الألوام من الشقوق والشعرات ، الألوام تتلاصق ، وتسد الفجوات بالكاريبا والمعجون ، ثم تطلّى ، وتحرق فيها عمليات الحداثة والسكرة ، وتجهز بالأدوات ..

بدا القارب وهو يتأمله فى هيئته للكلية ، الأخيرة ، صغيرة ، ولا يقوى على ركوب البحر . هذا القارب هو — منذ نزوله فى الماء — رفيق رحلته ، رفيق حياته . يمضى إلى نهاية الرحلة ، فيرى المجرى ، أو يغرق القارب ، فيغرق معه ..

قال :

— أين الشراع ؟

— لا موضع له فى القوارب الحديثة ..

وحق فيه بظرة مباشرة :

— حل الموتور بدلا منه ..

ابتلع إحساسا بالحيرة :

— لكن هذه لـ .. أخشاب تخلو من الموتور أيضا ..

— إنه قارب وليس مجرد أخشاب ..

لم يستطع السيطرة على انفعاله :

— إنه لا يصلح للوصول إلى صخرة الأنغوشى ..

وأرشف فى كلمات متكئة :

— أريد مركبا كبيرا يصمد للأمواج العالية ..

قال الكابت :

— تق أن المراكب الصغيرة تثبت لهياكل البحر أكثر من غيرها .

ثم فى هيئة الذى اتخذ قرارا :

— ترحل بمعرك .. وهذا القارب يكفى ..

— يكفى والبحر حصيرة .. فإن جاءت اللوة ..

— للوة تعرق المراكب الصغيرة والكبيرة ..

ثم فى صوت باتر :

— توكل على الله ..

سأل المعلم رحيم :

— ما الاسم الذى ستختاره للقارب ؟ ..

— أى اسم ..

— مهم ألا يتكرر .. ألا يكون في البحر قارب آخر بنفس الاسم ..

— هذا لا يشعلني .. اختر له أى اسم ..

— فليكن اسمه 'رحلة' ..

أطلقت مديحة صيحة خوف لرؤية القارب :

— هل هذا ما ستركب به البحر ؟

— رد الكاتب على ملاحظتي بأن السفينة الصغيرة أقوى على تحمل الأمواج العالية من السفن الكبيرة ..

وشت ملامحها بعدم فهم . عاودت إطلاق صيحتها للحائفة :

— كبره ..

وهو يدارى انشاصا يحميه بينين غير مرفوتين :

— هذا علمهم .. وهم يعرفون أكثر منا ..

والت بلهجة فاهمة :

— لماذا لا تعود إلى الأطباء وترك هذه الرحلة ..

أدرك أنها عرفت ما حرص على إبعاده :

— يذل الأطباء كل علمهم .. لم يبق إلا رحمة الله !

همست دعوات الشيخ نجاتي برحلة طبية ، لم يحذر من النطر لما حوله ، وإن يصحه بالأنا بطمن إلى ما قد يطغى فوق المياه من أسماك وأعشاب قبل أن تلامسه يده ، وطالبه بأن ينشغل بفكرة الرحلة ، واتحاشها ، ولا يكلم أحدا في طريقه ، لا يكلم حتى نفسه بصوت يسمعه .

رافق الكاتب إلى صناعي الأثرعة في ميناء البصل . حقق ، وتأمل ، وتفحص منانة الفماش بصنعيه ، فلا يبحر بشراع رديء .

اشترى الحبال من دكان وكالة القليمون ..

انطلق إلى الموصلة ، وصحة الاتجاهات . تأكد من موضع المحذرين في معصيهما . صرب بهما الماء . تأكد من استجابتهما لحركة الدراعين ، وانطلق . تطاهر بعدم ملاحظة الأعلام وقطع الفماش الملونة التي علت القارب . لم يسأل إن كان ذلك ما طلبه الكاتب من المعلم رحيم ، أم أنه تقليد يرافق برول للقوارب — للمرة الأولى — في الماء ..

كانت هذه هي المرة الأولى التي يقود فيها القارب بمفرده بأحذية الجريرة . استقر في أعماقه طلب اللحم الذي أطلال التعلم حتى يجده .

لم يعد يعمل ما يفعله ثلثة لصانح الشبح ، وإنما هو ثلثة لنداء سموي لا يقوى على رده ، لا شيء يمنعه من الوصول إلى ما خرج للقاءه . عليه أن يواجه كل ما يراه ، كل من يلتقي به ، وحيدا ، أعزل ، إلا من يدققة العوص والسكين ..

فصل الصباح الباكر موعدا لبدا الرحلة ، حتى تسهل له الرؤية لطول فترة ممكنة ..

كان لحر رؤيته لمديحة والولدين ، ولفقتهم على الجانب الأيسر للمياه الشرقية . يلوحون بأيديهم ، والغرب يمسى يسى اللامسات والعلاليك واللامسات والدجاج واللوامسات الواقعة ، المتناثرة . وأصل

تجديده ، وهو يعاود الالتفات وراءه ، حتى بدا الوقوف بقطعة ،
والكورنثش خطا رماديا في نهاية الأفق ..
انجه إلى أفق البحر ، وواصل التجديف ..

جال حوله ببطء بمنطلعة ، يحدد موضع القلارب في المياه
المتراصة . غابت عن أنفه رائحة البحر . حل — بدلا منها — تداخل
الرائحة المميزة لاحتلاط الملح واليود والأعشاب والطحالب ..
كانت عيابه معلقين بخيط لا يراه ، وإن يقن أنه موجود هناك ،
في نهاية الأفق ..

أوصح له الكائن كل ما ينبغي تعلمه . قال : احرص على قوة
الملاحظة لكل ما حولك . حتى ما قد يبدو طبيعيا ، ربما ليس كذلك .
وقال : الملاح الحقيقي هو الذي يدر قوة الحصم ، ويضع له ألف
حساب . وحين تواجه الحصم بمعدرك فهو الحصم . وقال : إن النقيض
بما يحبك فواجبه . تغلب على خوفك فيظهر خوفه .

أدرك أن في داخل الكائن قوى هائلة ، تملئ عليه كلماته
وتصرفاته . لم يعد الشجر ذلك العنصر المميز الذي يكتفي بتأمله في
جلسه على الكورنثش الحجري . تعلم كيف يواجه النوات والعواصف
والرياح وارتفاع الأمواج جبالا صغيرة ، متوالية ، والأسماك
المتوحشة ، أو الخطرة ..

أدرك أنه تلقى كل الدروس ، وعرف ما ينبغي معرفته . حتى
التعبيرات التي ربما لن يجد من يستخدمها معه ، حرص على تعلمها :

سيه : عودة المركب إلى الوراء .. التمددورة : جسم عائم في الماء
لإرشاد السفن إلى أماكن الرسو ، أو لتحذير من الأماكن الخطرة ..
قورصة : الإنحار ضد الريح ، الإفادة من الريح المعاكسة ، فوق
الريح .. لسكة : إرخاء حبل لمنع بشر الشراع .. مايله : حصص شيء
في السفينة .. مولص : حواجز وأرصفة ضد الأمواج .. هالة : ارتداد
المركب ، أو تغيير اتجاهه ، أو حره ، أو سحبه ..
دارى قلقه بابتسامة مهونة :

— هل يمكن أن أصبح مديحة والولدين معي ؟

قال الكائن :

— هذه رحلتك بمعردك .. وكما أشار الشيخ : لا أحد يرافئك .

عزى نفسه بأنه كان يحيا الوحدة قبل أن يبدأ الرحلة . اعتادهما .
فهو لا يتبره ولا تصليفه ..

طلت الريح ثانية ، والأمواج هائلة . ثمة بولحر وبلاسات تمر
من بعيد ، تطلق صفاراتها ، أو ترسل إشارة تحية ، وتواصل سيرها .
وكانت الأسماك تتفكر فوق المياه حول القارب . وسكة هائلة الحجم ،
تصح فكين متسعين ، تص كل ما حولها ، أو قتهش ، وتسلع الأسماك
الصغيرة . واسماك تهجم الأسماك الأخرى ، تصعب . أو يتسلعها .
تحلف وراءها بقعا من الدم ..

أرغم أن يجعل علامات الطريق : الحرر والنواخر العابرة
والتمندورات والصحور المائنة . فكر في أن يصنع علامة يهتدى بها .
ربما القارب عاد من حيث أتى .. لكن المياه امتدت في كل الأفاق .

لمواجهته . لحقق في تصور ملامحه ، وما إذا كان نجماً عادياً كما
تدل التسمية ، أم أنه كائن حي ، قد لا يكون من البشر ، لكنه يعكس ،
ويتحرك ، ويتكلم ، ويصمت ..

أعد نفسه ليصت إلى ما يقوله النجم . يتذكر كل حروف وكلمة
وجملة . حتى ما قد يعجز عن فهمه ، يطعمه في ذاكرته ، ويستعيد
متاملاً ..

ظل مشدوداً أمام الأفق الرحيب ، الممتد بلا انتهاء ..
كان يعد نفسه للرحلة ، دون أن يشعر بالخوف ..

لم يعد يشغله هدف الرحلة . هي هدف في ذاته . لا صلة لها بما
قبل ولا بعد . أهمل كل التصيلات والجزئيات والمعاني . الانطلاق
بالقارب يحمل البدئية والنهاية ، والإجابة عن الأسئلة التي ربما لم
تطرح نفسها ..

لما واجه أفق البحر — قبل أن ينطلق القارب — اقتحمه الخوف .
خوف مفاجئ ، غامض ، اعتصر بصره . وثمة أبحرة تصاعدت إلى
صدره ، وشيء — لا يدرك كنهه — ينتزع من داخله . يداوشه الشعور
بله أجبر على الرحيل إلى جهة لا يعرفها ، وإن كان الهدف هو رؤية
النجم ..

أين يجد النجم ؟ في أي مكان يظهر له ويعرفه ؟ يبدو النجم
نجماً ، أو متحولاً في هيئة تغيب عن تصوره ؟ وهل يفلح في تبين

لا جزر صغيرة ولا كبيرة ، ولا حطام سفن ، ولا شيء يدل على
مكان ..

لاحظ أن ارتفاع الأمواج في قلب البحر لم يعد مثلما كان عليه
بالقرب من الشاطئ . كان يحدث نفسه بما تعلمه من الرجل :
البراني ، ربح الشمال الشرقي .. البورة ، هواء كالسميم في يوم
ساكن .. الشرش ، ربح الشمال العربي .. الطيف ، ربح للشمال ..
الشلو ، ربح الجنوب الشرقي .. العليني ، جو هادئ ، ساكن للهواء
والموج .. العتل ، جو معتدل .. شرد ، جو للصاخب .. الفركسية ،
عاصفة بحرية .. لبش ، ربح تهب من الجنوب العربي .. البرمسي ،
ربح دافئة تهب من الجنوب .. الملاطية ، موجة عالية ، تهدد
البلانسات .. المكنم ، ربح طيبة من الشمال ..

قال الكاتب :

— إذا انتعت بصانحي ، فكن مطمئناً . لا لب لتركك عندما ترقى
الرحلة بيني وبينك . سأكون معك — بصانحي — حيث تذهب ..
ها هو ذا بوشك — في النهاية — أن يلتقي بما جاء للقاءه . ينطلق
إلى نفثات البحر المتصاعدة من المياه ، غلالة شبيقة تترافق من
ورائها المرئيات بملامح غير واضحة . في داخله ، يقين بأنه سوف
يلتقي بالنجم . يشعر أن ذلك النجم الذي يحدث عنه في مكان ما ،
هناك ، فوق الجزيرة الصخرية ، أو بالقرب منها ، أو يعلو وحيداً .
ترك الشيخ لحدسه وسيلة التعرف إليه . اندم يحن في المثل الشمسي ،
والنجم هو لدم والتم والذات والبده والمنتهى . تحفز لرؤيته ،

الهيئة المتحولة ؟ وما تصرفه إلى نيقن مما رأى ؟ هل يسأل ، أو يعفيه النجم ، فيرد — من نفسه — عن أسئلة تشغله ؟
احتفى الحظ الرمادى فى امتداد الساحل ، وغابت رائحة الأرض ، التوالى الربيب للأمواح بعمق الصمت ، ومر شعور بالوحدة ..

جلس على طرف السرير . هو سريرته حتى فتقل من شارع رأس التين إلى بيته فى شارع سيدى العجمى لم تبذل أمه تسمية الحجرة بعد رحيله ، هى حجرته . يلتقى على السرير ، ويستعيد ذكريات ، فى أوقات زيارته المتساعدة ..

الانفعال أوقفها على باب الحجرة ، لا تدخل ولا تحاول الحلوس . أضاف القلق إلى عمرها . اكتف بلم شعرها الأبيض فى إيشارب أسود . وجهها مائل إلى الشحوب ، وإزدادت التجاعيد فى الجبهة وحول العينين والرقم ، والترهل ظهر فى حديها . ورموش عينيها دأمت الانحناء ، وثمة رغب حفيف فوق شفتها ، وبع سوداء تعطى طاهر كعها . دائمة المسح على جبهتها كأنها تمسح عرقا . يطلب التمهيد والنطء فى حركاتها وإيماءاتها ، وتطول حديثها بفترات صمت ، للبحث عن كلمات محددة ، أو للشروء ..

— هذه نصيحة الشيخ بعد أن عجز الأطباء عن مداواتى ..

تحير الجمع فى عينيها :

— لا أتصور ابتعادك عنى ..

ثم فى بيرة متوسلة :

— هل نسيت أنى لحيا بمفردى بعد موت أبوك ؟

— تشعرينى بالذنب لأنى أقصر فى زيارتك ..

— يكفى أن أشعر بأك إلى جوارى .. أبوك الله لأو لأك !

فأجابها بالسؤال :

— أين ولدت ؟

حدثته ببطء متسائلة :

— ماذا تقصد ؟

— أقصد .. أين ولدت ؟

عثت التردد :

— ما شأنك بهذا ؟

— هذا شأنى جدا ..

أعاد السؤال :

— أين ولدت ؟ ..

ثم وهو يهرش فقه بطرف إصبعه فى حيرة :

— هل كان أبى يداعبنى حين قال إنى ولدت على جزيرة ؟ ..

— ما قاله أبوك صحيح .. ولدتك فى جزيرة بعد الأنغوشى ..

وأغمصت عينيها تحاول التذكر :

— كان البحر حصيرة .. تتزهد مع أبوك فى الجزيرة .. ثم

فأجأتى ألم الولادة ؟

أطى وجهه للدهشة :

— تركيب البحر وأنت على الآخر ؟!

— هذا ما حدث ..

وواجهته ببطرة متوحشة :

— لماذا تسأل ؟

سكت — بالعجز — أمام التمايع الذمغ فى عينيها ..

نسى — بتوالى الأيام — معاناة دول البحر ..

ألف اختلاف تكوينات الصبح ، وتبدل المياه من الأزرق إلى الأخضر إلى تداخل ألوان تعكس — فيما قدر — لون السماء ، صافية ، أو مغطاة بسحب بيضاء متناثرة ، أو سحب داكنة ، إذا واجهه الصيب ، أظلم من سمر القارب ، وربما أوقعه تماماً . فإذا غيرت الرياح اتجاهها ، أو علت الأمواج ، أدور الدفة ، واصل السير ..

فأحانه كثرة الأسماك بما لم يتصور . آلاف الأسماك تتلاصق فى مجموعات هائلة ، كأنها قطع متداخلة ، تنطىء ، وتسرع ، وتتوقف ، والأسماك الطيارة تتقار حول الغارب . اجتنبت انقضاض الطيور على الأسماك المتعارفة . تنهط وتعلو ، تلعب كالموصلات السريعة فوق المياه ، تكور فى نصف دائرة ، ثم تعاود انقضاضها ..

النجوم منتوثة فى السماء لهدف . علمه الكائن كيف يهتدى بها . يمضى فى الطريق الصواب ، ويعود عن الطريق التى تذهب إلى المجهول ..

أزمع أن يقصى الليل دون محاولة لاستجدام المجدفين ، ثم يواصل الرحلة . يصحو ، فيجد سكامب على ظهر الغارب . يشويها

على المقلاة ، ويعثرها وجة العذاء . ينصس الهواء المشبع برائحته الملح واليود والأعشاب ..

حاول أن يميز بين أنواع الطير — مما قرأه ، ومما رواه له الكائن — من الطيور التى كانت تحوم فوق الغارب وحوله ، نصرب بأحمتها ، وتطلق الصيحات . أشكال وتكوينات تطير وتتفهر فوق الماء ، وتنتهم الأسماك التى تنطير على السطح . وحومت مجموعات من العربال فوق الغارب . هبطت أعداد منها . استقرت على حواشب الغارب ، وعلى الشراع والصارى . تنعق ، أو تلتفط بمناقيرها ما لا يتنبه ، أو تقتنف بفضلتها ..

تناهت أصوات بعيدة ، تقبض بالعذوبة والإغراء ، كأنها الشدو الجميل . ضمن أنها لعروس بحر ، جنية بحر ، تسحره حتى يرتضى فى حصنها . تمضى به إلى الأعماق . أيا كانت احتمالات الهابة ، فإنهم لا يعودون ، تودى العروس بهم ..

روى له الرئيس عبد الحافظ معوض عن عرائس البحر ، جديلت البحر . يعين بأصوات جميلة ، ويعرض على آلات موسيقية مسحورة ، ويحتشد المسافرون بأغبياتهم . ربما لذت بالجزر المهجورة ، بسننطين على الرمال ، يجلس على الصخور ، بتجول داخلها ، بقس كيهوفا بتبحر إليها فى أوقات متعارفة ، ومساعدة . لرحلة تمضى إلى حربة حاليه . كيف يكون نصره لو أنه التى فيها بحسابات البحر ؟ هل يصدق ما رواه الرئيس عن احتطاف الجنيات للبيشر ، الرجال من الشتر ، من فوق الأمواج ، أو من الشاطئ . يبرل بهم إلى قاع البحر .

يروحون من ساب الماء . يأتي الأبياء مخلوقات خرافية ، نصفها الأعلى جسم امرأة ، ونصفها الأسفل لسمكة ..

روى له الرئيس عن اجتذاب عرائس البحر لراكبي السفن ، والمقيمين في الجزر المتناثرة ، والذين يدرولون إلى البحر . بعث بهم النحر الأكبر في محطات العالم وبحاره ، فيصرون عن يركب المياه . يسئل علوهن إلى آلهن . أو يصدرون لصواتنا كتعناء . يقع من تعوبهم في هوانها ، يستمرون أنفسهم إلى أسرها ، لا يملكون الفكك من النداء الموحى . تأخذهم إلى حيث لا يدرى أحد . وربما صحنه واحدة إلى جزيرة بعيدة ، فكلفه أن يستمتع بها . ليست عروس النحر التي شاهدها في متحف الأحياء المائية ، ولا العروس التي رسمتها في خياله روايات الصيادين في الحلقه ، وعلى مقاهي السبالة . ليست الوحه الجميل والجسد الأنوى والساقين المدعنتين في ديل سمكة . تظهر في هينت وأشكال لا نهاية لنحوراتها . تحرك الريح ، وتدلل الأمواج ، وتحصع الكائنات لإرادتها . وثمة عرائس تقتصر ماداتها على صورتها الدخلى ، لكن الاستجابة تنتقل إلى داخل المسره الذى تعبى بالنداء دون أن يقوى على الرقص ..

هذا عملها : تعوى راكبي البحر ، تجتذبهم ، تهبط بهم إلى أعماق البحر ، إلى حيث لا يعودون . تروى الحكايات عن الحياة الهينة التي تمتعوا بها في الأعماق : العصور المسحورة والذهب والكور التي لا تحترق ببال . لكن الذين تعيهم الجنيات في البحر لا يعودون ثمة عروس ترفض معاشره البشر ، تكفى بالإغواء فلا

يلغر بها أحد . تظل الجنيات في مواقع لا يتبها أحد . تعلو أصواتهن بالعناء ، يطلن بكلمات السحر التي تحصع الأمواج والسحب والأمطار والرياح والنبات والأسماك المتوحشة ، يأمرن ، فتتوالى الأمواج ، تنور ، تعلو ، يعوص القارب إلى أعماق الأعماق فلا يظهر ثانية . يهين الأعماق من تحتنبه الغواية ..

قال الرئيس إن المسافر لا يستطيع أن يعرف بين عرائس البحر والجنيات . ربما تقمصت الجنيات هيئة عرائس البحر ، مثلما يطلحن في تقمص هينت للكثير من البشر والحيوان والطير والنبات . الحنية تتدل وتنحور كلها الشيطان . تبدو صيادا هي قارب ، أو سمكة حصدتها من ألوان الطيف ، أو طائرا يصدر أصواتا كالشجر الجميل . أو أعشاب بحر تمش فوق الماء ..

تتحول الجنية ، تتبدل ، تنحور ، تأخذ أشكالا . لا تعود إلى هينتها — نصف إنسان ، ونصف سمكة — إلا بعد أن تلامس الجسد الذى تحولت لاحتدابه . قبل أن يعيق من ارتباك الصدمة ، تكون قد اجتذبت . مضت به إلى المجهول ، فلا يعود ..

هل بصنق رواية الاحتطاب إلى الفاع ؟ أو بصطر إلى حصوص معركة تعيب نتائجها ؟ أو تعود إلى البحر بصوت اقرب الغارب من الجزيرة ، فينتهى الأمر ؟ ..

هل الحنية — كما وصفها الرئيس عبد الحافظ — ذات جمال ليس في نساء العالمين . الشعر الناعم المسدل على الجسد النص الأملس ، والهدان المنكوران ، تصفى عليهما قطرات الماء ألقا . هل هي

كما وصفها الرجل ، أو أنها — كما شاهد في متحف الأحياء المائية —
أقرب إلى جسد متداخل التكوين والملامح : رأس صغير ، يحلو من
الشعر ، وعينان صيقلتان ، تنافسان حجم الوجه ، وأنف لطيف ،
وشفتان غليظتان مندليتان . وشبان صغيران يهبطان — بحرف —
إلى الإبطين ، وجذء أسود مجعد ، ويكسو الجسد شعر حشن ؟ ..
عندما علا القمر ، لم يلتفت إليه . حذر الكائن من اجتذاب
ضوء القمر لإرائته ، فتجشده الحجية إلى مملكتها في أعماق البحر .
تفصل الحنيات التالية القميرية لأحبار الضحايا ، يخفض ضوء
القمر ، يسلب للمسافر عقله ..

أرمع أن بصم أُنديه ، فلا يجتنبه النداء . لا تحتنبه الأصوات
المتربمة . حتى لو كانت العروس عروسا حقيقيّة . فإنه ترك بحرى
للغناء دججه . لا يشعله ما يثنيه أو يعطله . لنك كل العراس جنيات ،
ولتظنّ أنجنيات — مهما تتحور وتشكل — في حقيقتها التي يجب أن
يحافها ، ونحوصل التجديف نحو المعنى الذي يشعله . عليه أن يمضي
إذا أراد أن يلع الجزيرة ، لا يهب ابتهاجه لمشهد . ولا لصوت .
نطح بطرجه إلى ما وراء الأفق . يفتش عن المجهول والاررار السى
على بطلائها على الكائنات من حوله . يطل يجذب حتى يصل بالعرب
إلى حيث يوجد نجم ، إلى حيث يحد الإجابة عن ما يشعله من أسئلة .
يعرف أن الرحلة بعيدة ، لكنها بدت له — وهو يصرب بالمجذاهين —
أبعد من تقديره . بدت بعيدة للغاية ، كأنها حلم يصعب الإمساك به ..

كان بطليل التأمل إلى كل نجم . يتصور أنه هو . يتق أنه هو .
بحم منزعج أو شاحب الضوء . حتى النجم دى انديبل يطل بناعه
بدعوات متلاحقة . يهمل قول الشبح بجنى إلى النجم قد يتحور في غير
صورته . يتلاحق الكائنات من أعماقه . استعانت وابتهاالات ودعوات.
ربما قال — باللهفة — كلمات مندفعة ، وغير مترابطة ..

لمح نورسا يخلق في الأفق ، ثم حومت فوق رأسه أشراب من
الطير ، تحولت إلى غمام بيضاء ، أو سوداء ، صغيرة ، متحركة ،
يطلق في المدى ، وتدخل بين الأسماك ثعلبين بحرية ، وعلب المياه
أعشاب برية حصراء ..

أدرك أنه قد اقترب من الجزيرة ، وأن موعد رسو الفارب قد
حان . لاورس — كما تعلم — يطير على امتداد السواحل ، والثعابين
والأعشاب البرية تحيا في الأرض الصحلة ، بالقرب من الشاطئ ..

دارت عيابه في النقاء الأرض والبحر والسماء . امتدت المياه
ذات الرقة الذاكرة من كل الجهات على اتساع الأفق . أصاح السمع
لكل ما يترامى من أصوات ، حتى تفرق الأسماك الصغيرة فوق المياه،
وررفة أحجة للطيور الصغيرة من فوقه . ثمة ضوء حافت يعيل السى
الحمرة ، بدأ تصاعده ، وانعكس على للموح ..

حذره الكابتن من أن يصطدم القارب بصخرة تعمرها المياه .
تتحول إلى مجرد قطع من الأحشاب . وربما لا يحس السباحة ، فيعقد
حياته . وربما نهشته الأسماك المتوحشة ..

واصل الاقتراب ، حتى تبين تصاريص الجزيرة . تدخل الصحر
والرمل والتراب وقطع الحجارة الصغيرة ، تحوطها الأعشاب ، فتندو
بطارا من اللون الأخضر . وثمة طحالب تنمو — متأثرة — فوق
سطح المياه ، وتلمع تحت الشمس ..

قذف بالهلب على الشاطئ ، جذب الحبل ، فتأكد من تثبيتته ..
لم ير في الجزيرة للصغيرة سوى كومة من الصخور والاحجار
المتدحلبة بالطحالب وأعشاب البحر . قيل إنها كانت موضعاً لمنفر
ولى دفنه أصحاحه حيث مات ، وحيث كل يخلو إلى نفسه وسط
البحر . اختلفت الروايات فلم ينق اشبال في رواية واحدة . قيل إن
الصين طهر له بالكرامات والمكاشفات . لما صافى باعقل الناس ، مد
يساهل على الماء . مشى عليه حتى وصل إلى الجزيرة . رقع السباط
بطلائم وأدعية ، ثم أقام في الجزيرة ، وإلى طل يمشى على الماء يبي
الأعوشى والجزيرة دور أن تنقل قدماء . تجلبت كراماته حين بدأ السور
المنعش من الجزيرة يهدي المراكب العائرة . وكانت طلة من الطيور
تخلق دنما فوق موضعها بالجزيرة ، هي انباء صعود الشمس إلى
منتصف السماء . فإذا أثبت البوة دعا ربه ، فهدأت ، وعاد سطح البحر
حصىرة . وكان يشهد مكة من موضعه ، ويتعرف إلى الطائفتين من
حولها . صالفت الدائرة الواسعة المحبطة يكوح أقامه لنفسه وسط

الحريرة ، معشراف الشائثين عن النصعة والراء والمدد . ينثر المال
في طريق الفقراء والمعوزين . يلفوه ، فيقتضون حاجاتهم وبشكرو
الله . يعظمهم ، ويثو آيات القرآن ، ويهيمس بتوقعات المستقبل ، ويقوم
بأفعال يعجز عنها الإنسان والجان . وقيل إنه اشتهر بغدريته على قضاء
الحوائج ، وحل المشكلات ، وبصورة المظلومين والعلابة ، وهك
المربوطين ، وعلاج الممسوسين والملوسين والمسحور لهم من
الجان . وقيل إنه كان يسعى للنمو من العقم ، ويشفى الأطفال معاً
يصنعهم من أمراض ، يحرك أصابعه فوق موضع العلة ، أو يذك
الحرء للمريض براحة يده . نقائق ، تسرى فيها الطاقة للروحية من
اليدين الطاهرة إلى حيث الألم ، ويتم الشفاء بإذن الله . وكانت السماء مى
أهل بحرى يحرص على درول المولود في قطعة فمش مم ، يستحمه
الشيوخ ، فهو لاجب للذكرة . وكان يأتي بالعككة في عير فوسها لمن
يلج عليهم الوحم . وروى أن ابن الفريش حسوبة عراب عرق وهو
يسبح في مياه الأنفوشي . هدت المصيبة الأب للمكولم . رأى الشيخ
الحادثة مصانعة . أشار إلى موضع حلف قلعة قايتى . حاجاً الولد أنه
باستادته إلى جدار القلعة المغطى على البحر . وكان إذا بعد ما عده من
طعام ، مد يده إلى الهواء ، يلتقط ما تهديه له السماء ، ويأكل حتى
يشبع . وكان يطوى الأرض ، ويمشى على الماء ، ويطهر في أكثر
من مكان في وقت واحد ، يتشكل حتى يملأ أركان خلوات مرديسه
وحياة المؤمنين بمكاشفاته وكراماته ، ويكتشف الناس بمواقف حدثت
— أو ستحدث — لهم . وكان في بصره خاتم ، إذا دلّكه حضرت

الملائكة والجن والارواح والطيور والثوابع والشياطين ، يصع
نفسه في حذمها ، وكان يطعم الطير من يده ، ويكلمها بلعنها ، ويبدى
على الأسماك بأسماء انواعها ، فتعلو إلى السطح ، وتسبح بأحبيته .
يأمر الأسماك ، فتسمع له وتطيع ، ويسرحها لتتقل رسائنه إلى أتناعه
في الناحية لمقابلة للجريرة . ويعد يده في الهواء ، فتعود بطير لا
يبدى مقاومة حين يكرر ، ثم يجرى على عفه سكين . ويشير إلى
الأسماك ، فتظهر في الشباك إن لم تسعف الطراحة الصياد بما يطلسه .
وكانت تقوم على خدمته ثلاث من عرائس البحر ، يتناوبن الحروح من
الماء . وقيل إنه أشفق على ترسه مقلوبة على ظهرها ، حتى يأتى
معد يبحها . همس فوقها مكلمات ، فاستقبلت ، وجرت بما لا يتوقعه
البشر من سلحاة ، حتى اجتمعت . وقيل انه لمح لصا يتسلل إلى كوحه ،
ورأه اللص ، فاندفع نحوه يقصد قتله . بطر إليه الشبح ، وقال :
حسبى الله ونعم اللوكيل . شقق الرجل ، وسكنت حركته ، ونزلت
كواسر الطير على الحنة تهش لحمها فلم تنق منها حتى العظام . وقيل
إن مصليا في ياقوت العرش أكر ولاية الشبح . سلبه الشبح كل ما
حفظه من شعائر الدين وكلماته . لم يعد يعرف صلاة ولا صياما ولا
أيات قرآن أو أدعية وبتهالات . تسبح الرجل بمعام الشبح مستعيا .
تناهى لصوت من داخل الصريح : لكرت ولايتنا ، فطمسنا ذاكرتك .
ثم عفا عنه ..

أطل الطور ما يحيط به : السماء والبحر والحلاء والصحور
والكهوف والأشجار والأعشاب والنباتات البرية والطحالب العائمة
والأفاق : أين ولدته أمه ؟ ..
مد لظائر منقاره بهذا كرمح . دسه في الماء ، وصعد بسكة
كبيرة تلتعلط ..

ليست الطيور مجرد غمام بضاء أو سوداء ، متحركة ، تنطلق
في المدى . عرف الحصائص التي يتميز بها طائر عن آخر : الحجم ،
والحواصين ، والدليل ، وملامح الوجه ، والمقار . أفلح في تمييز الكثير
من الطيور بأصواتها . يصبث إلى الصوت ، فيحس نوع الطائر . لم
يقنعه نفى الرجل لما كان قد استقر في يقينه : طيور النورس تحسد
العرقى أو العنقى . ظل يعتنر صيد النورس شوما ..
لنقطت الصلة بينه وبين الحياة من حوله ، بين الحرية والنحو
للمترامى الأفاق . لا صحف ولا إداعة ولا تلغريون ، ولا حتى من
يحدثه عن الأحوال في البر . أدرك أن صيد السارة علمه الصمت .
كانت الساعات تصصى دور أن يتبادل الكلام مع أى إنس ، وهو —
مد بدأ رحلته — لا يكلم حتى يفسه . ساعات تعلم صيد السارة علمته
الصبر ، وعلمته الصمت ..

ألف تكسر الأمواج على شاطئ للجريرة على شريط الرمال ،
تكشف شعافية المياه عن القفاح ، تثار في فيه الحصى والأصداف
الصغيرة والأعشاب ..

لجأ إلى كل ما تعلمه : صداد بالسارة ، وألقى الجرافة ،
والطراحة ، وعاص إلى مسافة من الحرية الصحيرية يبحث عن

ماكولات بحرية . يزرع ثيابه تماماً ، ويعطس . ترك في بحرى سلسة
العمس ، وأدوات العس . أدرك أنه لن يستطيع الغوص بها . فلى
باله قول الكابتن : ليس السمك وحده هو ما يأخذه من البحر .. هناك
الكثير من الحيوانات المائية والأعشاب والطحالب والمحاريات
والأسفنج . وقال للكابتن : كل ما فى البحار يجد ما يأكله . المسهم ألا
يكون هو ما يؤكل . حجر نيزا فى الجانب الشرقى . تألق فى داخله
الماء العذب . جعل همه أن يروى زراعة بنتت بالقرب من المنز .
أحد بيض الطير من الأعشاش . أعدده على النار ، وأكله ، وهمس :
الله أكبر ، ثم جرى بالسكين على أعناق طيور كثيرة ، وأكلها مشوية ..
تأمل النيصة الدائرية ، المستطيلة ، نقرها ، فوشى داخلها
بالحياة

قال له الكابتن :

— هذه هي الحياة فى البحر .. للكائنات تأكل بعضها ..
مط شعته :

— هذا ما يحدث فى الأرض أيضاً ..

كان يستطيع رؤية لقاع فى الأجزاء الصحلة . يبدو الحصى
بالوان منديبة . افتح — بعد أن تحقق مرات كثيرة — فى صيد السمك
بيديه العازبتين . لا سيطرة ، ولا طراحة ، ولا حرافة . كلما أسرع
البدان بالعوص ، وبالصعود . أفلحتا فى صيد سمكة ، ثم يدعح يديه
لتصعدا بسمكة أخرى ..

لم يكن يفتس إلا إذا تلتته شواهد على وجود الأسماك . يعثر
عليها داخل الجحور والمعازات ، أسماك من كل الأنواع والأحجام .

حتى الأسماك الهائلة الحجم كان يبالها بالتصويب المنق من السدقية .
أو الحرية ..

طلعت لحيته — بتوالى الأيام — فلفت صدره . أزمع أن يهمل
مصافيتها له . اكفى ثوبين ، يرتدى أحدهما ، ويغسل الآخر ،
وينظره حتى يجف . أعاد التعل والبحث عن الطعام . لم يعد طعامه
مشكلة . فهو يحصل عليه من البحر ، ومن الأشجار ، ومن النباتات
البرية ، ومما زرعت يده . يمضى إلى داخل الجزيرة . يصطاد
الأرانب والدجاج والنط البرى . يحاول تسلق الحيل والأشجار ،
والنقاط المنز من أعلاها . يجمع الحطب ، ويروى الأشجار ،
والأعشاب الحقة ، يوقد فيها الديران ، يطهو عليها طعامه ، أو يشوى
الأسماك ، أو يعد مشروبات ساحبة . واشغل بصناعة السلال ..

أهمل النزول إلى المياه لبروتتها القاسية . مد قدميه فى المياه
المتلجة ، ثم سحبها ، ولم يعاود المحاولة . أهمل الصيد . اعتمد على
ما أثمرته قطعة الأرض ..

كانت الأمواج تملو ، وتتوالى ، وتندفع . تتكسر على صخور
الجزيرة وشعابها . وكان الطقس باردا . معح يديه بعمه . صرب
الأرض بقدميه . تفرص بين أشجار صغيرة ، متجاورة . أحس أنه
ينفض من البرد ، وأسائه تصطك ، وأطرافه تتجمد ..

كانت أنه تحرص — فى الشتاء — أن يدس قدميه فى جورب .
وترى فى ذلك نفعاً للجسد كله . لف حول قدميه قوطة كبيرة ، لكس
البرودة طلت نحر حسده . غطى كتفيه وظهره ببطانية ، ووضع

رأسه بين ركبتيه ، وصم ساقه بذراعيه ، وتعد هز جسده ، وهبوب
قدميه في الأرض ، يحاول أن يدفع نفسه بنفسه ..

واجه الحطار . دفع عن نفسه من لاد الطيور المتوحشة
والرومح والخنزير . تنقل بين الشقوق والنكهوف والفجوات بين
الصخور . حادر الصخور المسببة ، المندسة ، كسكاكين . اختار كهف
صغيراً ، بقصى فيه الليل . ينخل إليه على يديه وركبتيه . المدى من
حواله طيفات من الطلام والرؤى المتحيلة ، وهدير الأمواج ينزلى
وهي تصطدم بصخور الشاطئ . يرفع سمعه ، يحاول أن يثبث
لأفواه من هدير أمواج البحر ، والأصوات العنبرة التي ربما تلح إلى
مصادر ها ..

وكان يلجأ إلى مقام الولي إذا همه أمر ، أو حزيه ما كدره ،
بكلمه كأنه يراه . يأخذ منه ويعطى . يبلعه بالرائى الصواب حين
يزوره في نومه ..

ترامى صوت لم يكن ألفه منذ نزل الجزيرة ..

ثمة شيء صغير في الأفق ، ظل يكرر . توقع أن يكون باخرة ..
رأى .. من موضعه — باخرة هائلة الحجم . لم يتحقق من
بوعها ، وما إذا كانت بارجة حربية ، أم ساحرة ركاب ، أم ناقلة
بنزول . وصلت سيرها — عن بعد — حتى تحولت إلى نقطة في
الأفق ، ثم اختفت تماماً ..

فكر في وسيلة اجتذاب : يشعل لليراس ، أو يرفع قطعة قماش .
أو يصدر أصواتاً عالية كتم الزرعة في دحنه . نسه إلى أنه لحا إلى
الحريرة باختياره . لم ينفعه أحد ..

بدت الرحلة مفزاً وحيداً ، مضى من خلاله لينعم بالأسرار
المفيسة ، والعارات ، والإشارات ، والألفاظ ، والمحادثات ،
واللطائف الروحية . آلاف الطيور الصغيرة ، السوداء ، الصارخة ،
الزاعقة ، غمر الصوء لأجنتها ، تحلق في السماء الصافية الزرقاء ،
تملاً حو الجزيرة بالصخب . لا يذكر أنه رآها من قبل . تختلف عب
قرأ عنه في أحلامها ، وألوانها ، والأصوات التي تصدر عنها .
تقرب ، فتلقى ظلالها على المياه . تدفع نحو القارب في مياه سلا
أفاق ، ثم تنوب — في لقرائها — كلاً شيء ، تختفى كمراب ..

ثمة طائر وحيد ، التمع كومض البرق ، وإن لم يصدر صوتاً .
صنع الفراع من حوله بجناحيه الكبيرين ، ثم حلق في الأفق . انطلق .
رف بجناحيه في السماء ، ثم مال ، وانحدر نحو الماء ، وعاد . العلى
ظلالاً سريعة على صفحة الماء . كنه يرافق الفارب ، أعاد بشر
جناحيه ، وعلا فوق الأمواج ، وعلا . مضى في نصف دائرة ، ثم
انفع — ثانية — كأنه ينوي ملاسة الأمواج ، أو ينوي العطب . هو
لا يتعد عنه حتى يعود إليه ..
استدار الطائر هابطاً ..

توقع أن يعوض في البحر ، لكنه ما لبث أن طار فوق المياه ،
فكاد يلامسها ، تذبذبت على السطح — في ابتعاده — دوامات صغيرة ،
متحدرة ..

حيل إليه أنه يعرف هذا الطائر ، وأنه رآه من قبل ..
أين ؟ ومتى ؟ ..

ربما كان هو الذي ألّف وقوفه على إبرير الشرفة المطلة على
تقاطعات الشوارع ، يهزل كحمامة ، يتقافز على الإبرير الحديدى ..
يقترّب ، فيستقيّبه شعور الألفة . يتأمل تمازج ألوان الجبالين ،
والعسب الحادى البطرات ، والمنعار الدائم الحركة ، كأنه يتكلم بلغة
هو — بالقطع — لا يعرفها ..

قال له الشيخ بجاني :

— ربما يتجسد النجم فى هيئة سمكة أو طائر ..
همن لنفسه :

— هل يكون هذا الطائر هو نجمة الذى خرج للبحث عنه ؟ ..
ألم ياء طائره فى عقه . هل المعنى هو ذلك الطائر ، النجم ،
الذى يراه منذ الميلاد إلى الممات ؟ ..

حاول أن يتوصل إلى معنى يرشده لما يبحث عنه : حركة
الطائر ، التحلوط المستقيمة ، والمتعرجة ، الانطلاق إلى أعلى ،
والهبوط إلى أسفل ، الأشكال والتكوينات التى يرسمها الطائر . دورانه
فى دائره المدى . يمسك باللاحظة التى تعينه على الوصول إلى ما
خرج للقلانه ..

تمنى أن يتلقى المر الذى خرج فى رحلته الغامبية لمعرفته ..
لكل الطائر بدا مجهدا ، ذائيا ، يطير بصعوبة ، أو لا يفوى
على الطيران ..

قل لنفسه وهو يواجه بالمعجز معاء الطائر : هل أجل بدء
الرحلة حتى نفذ وقتها ؟ ..

طوى الطائر جناحيه الكبيرين — فجأة — ونس عفه بين كتفيه ،
وأنه يعنى ما لا قبل له على تحمله ، وأنه يوشك على السقوط ..
مضى الطائر قربا من سطح الماء . صار جزءا من امتدادات
الفرغ . تلاشى فى داخله ..

ساد الصمت ، والغموض ، والرؤى التى ترفض البوح ..
تناهت أصوات من أعماق البحر ، لا يدرى مصدرها على وجه
التحديد . تصاعد فى دلائله هاتق : أن ألوان الرحيل ..
عرف — كأم لا يستطيع رده — أن عليه أن يهجر الاستقرار ،
ويكمل الرحلة التى لا يدرى كيف ولا أين تنتهى ..

بدا ما يفعله تلبية لهاتف ، وصية ، نداء مجهول ، أمر لا يعرف
مصدره ، يلتقى بالنجم ، الطائر ، السمكة ، المجهول الذى سيهيمه سر
حياته ..

اقتحمه خوف من المتوقع ، لا يفهم ملامحه ، ولا حتى صورته
الكتابة . حوف يلح بأن شيئا يوشك أن يحدث ، شين لا يفوى على
دفعه ..

لكن النداء في دخله ظل أقوى من معنى المصى في الرحلة ،
وصحنت — في داخله — أشياء كان قد تصور أنها ماتت .

الفت وراءه ..

تصاممت الجزيرة ، وشحنت . تحولت إلى بقعة صغيرة ، ثم
احتكت تماماً . عاد اجتواء المياه للقارب من كل الجهات . لم يعد يسمع
إلا هدير الأمواج . كان قد أعاد ملء الحراكن بالماء العذب ، وملاً
القارب بالفاكهة والحصر ..

لم يسفر الأفق عن نهاية ، أو حتى ملامح للنهاية . استنكت
سخونة الهواء . حتى هدأت الهواء كانت لافحة . استحالَت الشمس قسوة
عريضة من النياض المتوهج ، بنح سخونة لاهة . البحار المتصاعد
بحيل الأفق سراباً ..

حاول أن يجتاز النهار داية وسيلة ، لا يجهد نفسه في التجديف ،
ولا محاولة الإسراع . همه أن يفر من القبط والشمس اللاهية . لو أن
الكباش كان معه في القارب يمسك بالدفة ، لكن الشبح طأبيه بش
نمصى رحلته إلى منتهىها ، دون رهيق ..

قال الشبح نجاتي :

— لا ألد يذهب مع آخرين .. كل واحد يذهب بمفرده ..

راى الكثير من الأسماك التى لم يحدثه الرجل عنها ، ولا يعرف
أسماءها . ربما احكتب عبيبه ومصات سريعة كلمحات البرق . يحمى
لها الاسماك القوسغورية ..

الفتح في تجب التيارات الصاحبة ، المواره ، فلا تقف الغارب
إلى موضع ليس هو الذى يمضى إليه . حذر الكباش من التيارات
البحرية المجهولة ، المعاجنة . تدفع الغارب إلى شساطى صخرى ،
فتخطمه ..

تئين — فى الأفق — نقاطاً متناثرة ، بعيدة ، كأنها تطفو على
سطح الماء . تراءى ما بدا كأنه جزر صخرية ، أو روعس جبال .
تصور أنه على وشك الوصول إلى الأرض ، لكن المسافة جذعتسه .
ظل القارب يشق الأمواج ..

هل تكون هذه الصخرة للبعيدة هي حجر المنطيس الذى قرأ
عه في الحكايات ؟؟ يجتدبه القارب بحيته حتى يلتصق به ، فتتكك
أحراؤه ، وتغرق ..

مر زمان دون أن يلحق جزيرة ، ولا سفينة من أى نوع ، لا
صغيرة ولا هائلة الحجم . شعر أنه وحيد فى هذا البحر المترامى ..

أحس بالثعب من طول الرحلة ، ومن التجديف ، ومن توقع ما
تعيب ملامحه . الأفق المترامية من كل الجهات حاصرته . فقد الأمل
هيماً وراء وراء . قهره الشعور بالوحدة والعزلة والحياة فى سحن ..

امتدادات الأفق من حوله ، تحولت إلى أسوار غشير مرئية ،
يصعب عليه عبورها ..

علا صوته — دون تدبر — بالغناء ، كمن يطرد شيئا من داخل نفسه ، أو لا يتيببه . لم يتدبر الكلمات ولا الأفعال ولا المعاني على ما أسعفته به ذاكرته . مجرد أن يدفع الوحدة عن نفسه . ويدفع الوحشة ..

جاء الليل ..

ازداد سواد السحب ، تكاثفت الظلال ، حتى انعدمت للرؤية . سادت الظلمة ، عثيت عنياه فهو لا يرى شيئا . ليس حوله من كل الجهات سوى الأمواج الصاخبة من حوله ، لا يبين منها سوى هدير اصطدامها بالصخور الصغيرة ، المتناثرة في المياه . الظلمة المتكاثفة ، لا يرى فيها بقعة ضوء ، ولا يتعرف إلى موضع الملامسة ، ولا حتى إلى تقاطيع جسده ..

حاول أن يسترشد بالبحوم ، ثم أزمع أن يوقف إلى صياح اليوم التالي . الرؤية في ضوء النهار أفضل من الرؤية في الليل .. لم يعد يفرق — بتأثير الظلمة الدامكة — بين الليل والنهار ، ولا يعرف توالي الأيام . هي لحظة ساكنة ، ممتدة ، يعيب فيها التوقع . وإن ألف أصوات الليل ..

حين أراق العمر صوته ، تشاغل بعد النجوم ، وتأمل الطحالب الغافية فوق المياه والأسماك المتدفرة . علمه الكائن كيف يحدد مكانه في قلب المياه ، بالتطلع إلى النجوم . كل نجم يشير إلى ناحية

الشمس تشرق على كل الدنيا . تشير إلى الليل ، وإلى النهار . تحرك النجوم في السماء يرتبط بالأجرام الفلكية ، وبحركة المد والجزر ، والعواصف ، والنبوءات ، وحطوط الطول ، وحطوط العرض ، وقسوة الرياح ، وتغير اتجاهاتها ، وسكونها ..

يدرك أنه ربما لا يجد طائرته . لكن الدافع للبحث عنه تملكه تماما ، تاق إلى السر الذي يعرفه حقائق كثيرة ..
لو أن الطائر تكلم ..

يعرف أنه طائر ، ولا يستطيع كلام البشر . لكنه طائرته هو . عليه أن يوضح ما غمض ، ويفسر المعاني ، ويشير إلى الدلالات ، ويملى الفعل الآتي ..

صحا على التقاء السماء بالأرض . الأفاق لا نهاية لها .. فرغت الحراكن من الماء اللعّب . استخدم مياه الأمطار . يضع الأناسي الفارعة وسط الغارب . تتلقى الفطرات المنهمرة ، حتى تمثلي ، فيعربها في الحراكن ..

أشرقت الشمس وغربت ، وظهرت النجوم واختفت ، وتحلّسى العمر عن استدراكته ، ثم عاك إليها . طوى مراحل ومحارف ومهالك ، وليام راحة ، وليام تعب ، وعانى الحر والصقيع ..

ترامت أصوات بعيدة ، متداخلة ، غير مستديرة المعالم . ومض الأفق بدروق منوالية ، كأنها الشهب المتضاربة . ثم تبين — في الظلمة

المتكاثفة — أعين ملتصقة بريق غريب ، ربما أربيع أعين ترميه
بظرات كلهب النار ..

ليس حوله إلا امتدادات الأمواج — بلا نهاية — من كل الجوانب ،
لا شمال ولا جنوب ، ولا شرق أو غرب . القارب بقعة في مساحات
من المياه التي امتزج فيها الأزرق بالأحمر ، وثمة فلوكة بعيدة ،
طافية ، حالية ، يحررها التيار ..

يسيطر عليه إحساس بالخوف من آفاق المياه المترامية . قهره
الإحساس بالعزلة ، والوحدة ، والصلابة ، هي اتساع الأفق حوله من
كل الحوائط . إنه حر في الفراغ المطلق . مفيد في الفراغ نفسه .
على لبداىي الخوف . يرتفع صوته بكلمات غير مترابطة ، ومدعمة ،
مجرد أن يطرد الإحساس بالعزلة ..
مير شينا هي الأفق : باخرة ، أو غمامة سوداء ، أو طائر كبير
الحجم ؟ ..

سرى — في المياه الساكنة — اضطراب خفيف . خمن أن شينا
ما حرك المياه في الناحية المقابلة ، وراء الأعشاب النامية على قلب
البحر . تأرجح القارب ، شاخت مقدمة في الموج ، وعلت ..
ندفعت الأمواج إلى القارب ، تغلوه وتهبط . دفعت التيارات
إلى الأمام ، وإلى الخلف . تزلزلي من أسفل صموت كالهسيس ، أو
كالشحشة . انتثر من الماء — فجأة — جسم كالترسة . فزع عاليا ، ثم
عاود العوص ..

خمن أنه عاص تحت القارب ليقلته . شاب التوقع ، وما يستطيع
أن يعله . حدثه الكاس عن المطوفات الغريبة التي تحيا في أعماق
البحر . تعلم السباحة والحيد وقيادة القارب ، لكن تعصيات الصورة ،
التكوينات واللامع والألوان والطلال ، طلت غائبة ..

علت للريح بما يشبه الزمجرة الفلسية ، تحيفه ، وتدفعه إلى
التلفت . استعاد ما تعلمه من الرجل عن نضاب الشجر ، نأى بلا
نذر ، ولا مواعيد محددة . تحولت الأمواج إلى جبال صغيرة ، لم يدر
كيف يولجها ..

فكر في أن يرفع على جانب القارب قالة داخلية . لو أنها الأبيض
استعته للسفن العابرة . هذا ما نصحه به الكاس إذا وجه ما يدفعه
إلى طلب الإبعاد . أمل العكرة نؤية الأمواج المتلاطمة — وحده —
بلا اتفاق من كل الجهات ..

ما يحدث في المياه كأنه فوران ، غليظ . علت الأعفانق السطح .
نصاعدت سحابة لعت وجهه ..

طنه — لضحاته — غيمة متقلة ، عابرة ، ألقت بطنها الدكن
على سطح الماء . لكنه بدا جسما هائلا ، غريبا . اقترب ، واقترب .
للصباح يرتفعان وسعصال في رتابة بطيئة ..

هوى الطائر الضخم . لطم المياه بخاصه ، فقلت كالنفورات ..
اصطلمت رأسه بمقدمة القارب . مسحت يده — بغوية —
انجاس الدم . وثبت به القطرات المتساقطة على وجهه ..

اندفعت ملايين الطيور . أحجام صغيرة وكبيرة وألوان مختلفة .
طيور لم ير مثلهما من قبل . لا يعرف من أين — ولا كيف — أتت .
حومت فوق القارب ، فوق رأسه . طارت من حوله . تقافرت على
حواف القارب ، اقتربت . حطت على رأسه وكتفيه وصدره . عجز
عن دفعها ، وإن لم يشعر بتألم من توالي نقرها لجسده ..
بدا كما لو أن موة قلنسة ، بدرها رهيف الريح ، وتعالى الأمواج .
ثارت الأمواج بلا توقع . حفظ مواعيد النوات ، وحركة المد والحزر ،
لكن الأمواج ارتفعت بالثوة الملعنة — هل هي ثوة ، أو هبة ريح
وقتية ؟ — فدفعت القارب بعيدا ..
قال للكائن :

— لو أن كل النوات أعطت إذارا لمن يغرق أحد ..
فاجأ صياح اليوصلة . احتلقتها الأمواج . حشى أن يكون
القارب قد بدأ الدوران في مساحة دائرية ، فهو بعيد عن الشواطئ ،
ولا يتجه إلى الأمام ..
فكر في أن يقفز إلى الماء ، لكنه فطس — بارتفاع الأمواج
وفورانها — إلى سقف الفكرة ..
لم يعد بوسعه للترجع ..

أدرك أنه لن يستطيع العوم مترا واحدا . نسي كل ما تعلمه .
للمواجهة لن تجدى ، وسيخسر للمعركة إن خاضها ..
تلفت ، يبحث عن فرصة للهرب ، ملاذ يحتمى به ..
أسكت تردده إصرار بأن يقتحم لجة البحر مهما تحلو أمواجه ..

قال الشيخ نحاتي :

— السعى إلى لغاء النجم هو الرحلة الوحيدة التي يجب على
المرء — حين تبدو مشكلته بلا حل — أن يطلق فيها ..
ساعات الصباح . الشمس على يمينه ، فهو التشرق إذن ،
والقارب يمشى نحو الشمال ، والجنوب في أسفل ..
تكثف للصمت ، وتشم أنفه رائحة غريبة ، كأنها العدم ..
لجأ إلى المدفئين ، أودعهما كل ما لديه من قوة ، بصرب بهما
تلاطم الأمواج ..

انفجرت المياه عن كتلة هائلة ، انتشرت في الفراغ ..
راقب — في ذهول — دورة الجسم البطيئة ، الهادئة ، وانزلاقه
على الماء . بحث من أنفه ما يشبه السحب الصغيرة ، المتلاحقة .
تداخلت الأكوار في البشرة العنساء . تحول الأبيض إلى أسود ، وتحول
الأحمر إلى أزرق ، وحل الأصفر حتى هزمه الأخضر ..
تبدل الشكل الهلامي ، فاكتسب ملامح إنسانية : عييين وأنف
وشعير . تحصر بالمعوزتين وآية الكرسي والأذعية ، لكن المجهول
ظل على تبدله حتى أطلق صيحة للهيئة التي أسفر فيها ، كأنه يرى
نفسه في المرآة . هتار العييين هما عيياي ، والأنف ، والشعيرتين ،
حتى حصلت الشعر البيضاء في مقدمة رأسه . حتى اللدبة البنية تحت
الأنف ، وإن راد الشعر الأبيض في العودين ، وأحاطت التجاعيد
بالعينين وحول الفم ..

غالب تأهله للتصدي . لم يكن الفعل فعله ، لكن القوة المسيطرة ،
الأمرة ، نبعث من داخله ، تآزمه بالسكية ، معنوح العييين ، صامتة ،

جامد الأعاس ، لا يتحرك . ينظر إلى الحسم الهائل ، يتصور أنه يقترب منه ..

تحركت الشفتان . بدت الكلمات واضحة ، راققة :

— أنت لا تملك من الأمر شيئا ..

ثم في نبرة حاسمة :

— إذا وجدت ما يخيف ، فاندف بصحك في الماء ..

طلت الأمواج على صخبها وهولها ، تردد في قصف نفسه .

تذكر قول الكاتب : إلى اشتدت الريح ، فامصر معها ..

علت موجة هائلة ، لم يستطع مقاومتها ولا دفعها ، أزمع أن

يطل في مكانه ، لكن الموجة اجتنبت للغارب . طوحت به إلى بعيد .

ننسه .. في لحظة — أنه يفارم الموح أكثر مما يعوم . يتحرك في موضعه ، ولا يطلق إلى الأمام ..

مصت أرمان وهو على حاله . جرفت الأمواج للغارب . ليعتد

عن الجزيرة تماما . انفسح البحر أمامه أمواجاً متتالية . لم يعد إلا الأمواج في كل الأفاق ..

أدرك أن ما تعنمه من الرجل كان أقل مما ينبغي . عرف كل

شيء ، أكثر حتى مما عرفه من الرجل . معنى لو أن الرمن عاد إلى النداية . ربما تعبرت أشياء كثيرة ..

لم يقتصر هبوب الريح على جهة ما ، لكنه شمل كل الجهات .

صغير الريح يحلل الهواء من حوله ، يحركه . يطو بـ الأمواج

والقارب ، أمواج عالية يهتز لها القارب ، حاصرته في نواحي مذهبا .

تعالى صوت الرعد ، وومص وهج البرق ، ثم هطل المطر كالسيل .

لم تعد له سيطرة على القارب ، فالأمواج تغلوه وتهبط . تقلصت يداه

على المحذلين . يعرف أنه إذا سقط في البحر ، فلن يجد أن يعرق

القارب . على صعق الريح على ساعديه ، حتى لا تقتزع الأمواج

المحذلين ..

أحس — في امتدادات الأمواج العالية ، المتوالية ، كأن القارب

تحول إلى قمر ، وأنه وحيد . لا بشر ، ولا طير ، ولا أصوات .

استلت الأصوات من كل شيء . حل مكون عميق ، مبهم ، حافل

بالأسرار . تحلل السكون حتى الأعشاب والطحالب التي تطفو على

سطح الشبه . عاب الصوت الذي يحده تدهر الأسماك فوق السوح .

حتى الهواء سكن . حتى الطيور كأنها لزمت أعشاشها ، والطيائر التي

طل بحوم من فرقه ، اختفى ..

أين ذهب للطيائر الذي كان يخلق وحيدا في الأفق ؟ هل مات ؟

هل كان هو نجمه ؟ وهل أوما موته — إن حدث — بالمر والإشارة

لنعمي ؟ ..

حين ظهر للطيائر ، تسمى أن يعرف منه السر ، لكنه اختفى ..

مضى الطائر دون أن يهبه السر الذي طلبه من الرحلة ..

حاول أن يستعيد الملامح التي ربما أشار إليها الشيخ نحلت في

أحاديثه . ما تحلل الكلمات مما لم يفتس إليه ، أو أهمله . نقوء

صحري في المياه ، أو نجم ، أو بقعة مريحة بالسلك ، أو حالية منه ،

أو سفينة غارقة ، إشارة يهتدى بها ، يعصى القارب حتى يجد ما يطلق ليلقائه ..

احتقن التومص ، والعلامة ، والإيماء ، والإشارة ..

هل يطل نالها بين الأمواج ، أو يظهر ما يامله ، ما يشي بالخروج من المازق ؟ ..

همس كالمتمائل : هل سيقى الشيخ نحائى إلى موضع النجم ؟ ..

تمشى معه تحت ظل شجرة بهائنه لا تئين ..

قال الشيخ :

— هل التفتت بنجمك ؟ ..

— أظن لئى رأيته .. لكنه بدا كالومصات للسريرة ، ثم لختفى ..

— فى لحظة رؤيتك له كان يودعك ..

أظهر الدهشة :

— لم أكن التفتت به حتى أودعه ..

— كان يرافحك — كما رويت لك — مذ ولادتك ..

— أنت أمرتني أن أبحث عنه ..

اقتراهه عن انبساط مشقة :

— لماذا تصورت أنه بعيد عن ذلك ؟ ..

تبذلت ذبرة صوته :

— هل انتهت الرحلة ؟ .. هل أعود ؟ ..

— رحلتك بدأت فى شروق الشمس ، وتنتهى فى غروبها ..

— لم تغرب للشمس بعد ..

— إن لك شمك الخاصة ، وهى تغرب فى موعدها تماماً ..

أذهله الكنفات ، وثقت فى طبقت التلطم المتكاثفة من حوله ،

يبحث عن أصداه الصوت العائب ..

هين له أنه يشاهد أرواحا ، ويسمع أصواتا منعمة كالنراتيل دأو

الأغنيات ، وثمة شئ لا يتبينه يتولد داخل نفسه ..

بنت المرئيات كحلم ، أو كابوس . اهتزت الجزيرة كأنها

تتحرك ، كأنها تدخل فى قلب الماء ، أو أن البحر يستلحها . هدر

الردد ، وتولت البروق ، وسقطت السيول . علقت الأمواج محملة

بالحصى والطحالب والأعشاب والرمال . تشفت الصخور ، وتفتت .

وانحدرت ، وانبتت السراكين . احتلقت الصواعق والعواصف

بالشهب والنيارك والنجوم المتساقطة . اصطدم كل شئ بكل شئ

تعلقت اليرير ، وشاعت الحرائق والشطايا والدخان . تسلل العيار إلى

عيبه وأنبهه وأفعه . تحلل شعره ، وصنع وجهه ، واجتفت المرئيات

فى سحابات العيار المتكاثفة ..

غابت الإشارات ، لا بداية ولا نهاية ، لا أرض ولا سماه ، لا

بحر ولا شاطئ . تبدلت التصاريف والأماكن ، وتداخل كل شئ فى

كل شئ ..

ثم رابت الظلمة والصمت ..

حاول أن يستدعي صوراً ربما كانت موجودة في حياته . ظلمت
صفحة الدهر ببصاء . نسي كل شيء ، وكل إنسان . لم تكن منيعة من
بين من النقي بهم . ظلمت ترافقه إلى هبوب العاصفة التي طيرت
العارب ، وقذفت به في داخل الأمواج وحيدا ، غابت الملامح والأسماء
عن ذاكرته . كال بابا أعلق على حياته الماضية . فرصت اللحظة
بصياها ، مقطوعة الصلة بما مضى ، وإلى ألحاح بالحوف من الأتى . لم
بعد بقوى حتى على الصراح ..

وجد العارب مغلوباً فوق شجرة . أدرك أن اللذة — التي أطاحت
بكل شيء — تحدث بالعارب بين هروع الشجرة الهائلة . وثمة قطع من
الحشب طافية فوق المياه . خمن أنها بقايا مركب أغرقها النوبة . مسح
الموضع بنظرة سريعة . بدا أن الأمواج طوحت بالأخشاب من بعيد .
سُلق الشجرة . وبرز بالعارب . لحاً إلى اللطة والمشيسلر والمعادود
حتى هياء — ثانية — لمواصلة الرحلة ..

ظل العارب في انطلاقه ، حتى نحول الجسم العريب إلى نقطة
ذابت في الأفق ..

أوغل العارب في الزمان والمكان . امتدت القندالية ، فعلمت
النهاية . تشوشت الأوقات . احتلط الماضي فى الحاضر ، وغاب
الحاضر في ردى الماضي . دبت اللحظة في اللابنهية والمطلق ..

سكنت الريح ، وصلىح أمر البحر . هدأت الأمواج . هدا كل
شيء . تحولت المياه إلى حصىرة ، سطح أملس ، ساكن . طلت

للشمس وسط السماء ، فعرف أن للنهار المنتصف . اتسعت السماء —
فجأة — هبت بلا أفق ، كأنها نقطة التقاء الأرض بالسماء ..

أقبل من حيث لا يدرى سرب هائل الحجم من الطيور المتداخلة
الأحجام والألوان . أعداد لا حصر لها ، شكلت عيمة فوق البحر ،
بنلت لون المياه ..

انقضت الطيور حول نصفا في دورات متتالية . اتجهت ناحية
الأفق ، وعادت ..
قال لنفسه :

— حيث يطير الطائر ، فهو قريب من الأرض ..
أدرك أن الأرض قريبة . لم يستطع تحمين موقعها على وجه
التحديد ، لكن الطيور المحلقة وشت بقربها ..

الافاق من حوله معتدة ، متراعية ، لا بشر ، ولا طيل ، ولا
صوت . زيد المياه يلتصق تحت انسكابات الشمس ..

التمع الأفق بوميض . أشرقت الشمس عيبة ، وأشرقت ،
وأشرقت . غمرت بحرارتها العارمة . حلت السماء من السحب تماماً ،
وإلى غابت الزرقة . اصطنعت المرئيات بألوان الطيف ، ثم عادت
الألوان ، فلم يعد إلا اللون الأحمر . بنت الشمس أكثر حمرة ، أقرب
إلى قرص هائل من الدم . تحولت إلى امزاج ألوان الطيف ، بعددت ،
واستطاعت . بعث الهواء الساكن قطعا من الذهب الذي يحس ولا يرى .
وإلى دخلت المرئيات — بالحرارة العاسية — فى صلب منكائف .
تصاعدت الشمس من الماء ببحار ملتهب . لم يعد ثمة عاصم من
الشمس اللاهية فى امتداد الأمواج من حوله . احتوت كل شيء سحوبة

قاسية . سيول من الحرارة تنفق على كل شيء ، تنسكب على الأمواج ، وعلى الغارب ، وعلى رأسه . بواقي متحاربة ، تطل منها نيران مشتعلة . أتون من الجحيم . اشتعلت المياه بالسخونة العارقة . فارت من حوله كمراجل ، أو قدور ، متلاصقة . لم تعد الأسماك تنقار فوق المياه . ظلت في الأعماق الباردة ، ولانث الطيور السوداء بأمكن مجهولة . وتحولت الصخور البائسة من المياه إلى قطع فحم شديدة للسواد ..

شعر بالعباس بشرية قريبة منه ، اقتحمت أنفه ، تكاد تلامس وجهه . اردحت الأجساد وتلاصقت ، بنز منها العرق وانتفاصات الحوف ، وغمقت الأفواه بما لم يتدبه . دعوات وانفجالات وهمهمات وأعباس ورائحة أحساد لا ظلال لها . أعداد لا حصر لها ، لا يراها ، وإن كن يشعر بلعابها مترجاً بلعجات الشمس الحارقة . حنقه رحام الأجساد ، صعط عليه ، واستمع إلى همهمات ، حذر أنها نهجات لم يفهمها . كل شيء هو فوهة بركان ، تعب في تصاعد سخوته حتى للمرئيات ..

هل هو وحده الذي لا يرى الأجساد التي تثبت أعباسها ؟ هل سواء أعين الآخرين ؟ ..

راد الوهج ، استحالت جدوة نار ، واستحالت الجنوة شمسا هائلة ، مشتعلة . تولدت من الشمس الالهة شموس صغيرة أهد نوفاً ، تنفث صهداً ، لها ، نارا جامية ، تكاثرت ، وتجاورت ، وتلاصقت . استحالت شمعا كبيرة بمساحة السماء كلها . تداخلت في السماء . جاورت أشعتها معنى الأشعة ، فهي ألسنة من النيران ، حيوط بارية

لا بهاية لها ، أسياخ من الحديد المحمي ، قطع من شطايا الرجاس . علت راحة غريبة ، كلها الشواء ، أو اللحم المحترق ..

تقصد العرق من مسام الجلد . بلل شعر رأسه وجسمه ، علق برموشه . اقتحم اللوح جفنيه فأغلفهما ، ثم نثر — بعفوية — العرق للعائق بالرموش . انهمرت حبات العرق على وجهه وعنفه وكتفيه ، جنوباً ساحرة تسلفت إلى عيبيه وأنفه وأذنيه وفمه . أحس أن بحاغ عضله احترق ، ذاب . أين الأم ومسيحة والوليدان والشبح بجاني ولكابس ؟ أين ذهب الجميع ؟ لم يعد يشعله إلا نفسه ، اللحظة التي هو فيها . انطمعت الرؤى والأحلام والذكريات ..

ناق لسكني الطلال ..

توالت غلالات زرقاء ، شعبة ، يبين من ورائها الصياء الأساطع . تصاعدت منها جريرة لم يتحدث له الشيخ ، ولا الترحل عنها ، ولا توقعها في رحلته . تصل سفالة بينها وبين صحرة بائنة في البحر . تنبثق في ضوء الشمس ، وإن حلت الأشعة من الحرارة الالهية ، فهي مجرد ضوء رائق ، صاف ..

مال بالغارب حتى حاذأها ، ونزل .. أول مرة يترك للغارب مذكر زمن لا يتذكره . بدت السفالة — مع طولها — رفيعة . بالكاد وصح قفما أمام الأخرى ، وسار في حطوات متلطفة ..

لم يهتز في وقفته على السقالة الرفيعة ، ولا حاف المقوط فسى
البحر . حل في نفسه اطمئنان وسكينة ..
صالح لافاسه تمارح روائح الكافور والمسك والعنبر والزعفران
والطيب ..

قبل أن يبدو النزول على الجزيرة مجرد قفزة ، يتعرف بعدها
إلى الأرض التي تعطت بالغبابات والأحراش ، فأحبت ما غلب عن
تصوره ، ظهر ما لم تتع عليه عيناه من قبل ..
أعاد النظر للتثبت مما رآه ..

مع أنه توقع للبشر داخل الجزيرة ، فإن وقعة العجوز فسى أول
المحدر إلى النحر أذهلته . ظل البشر يحيون في ذاكرته وحدها ،
حتى طمس الحلم ، الكفوس ، كل الملامح والقسمات والأصوات للنسى
ألغها ..

لم تنش قسماته بمن محددة . بدا وجهه متألقا ، وتكوينه الجسدى
سابحا في الضياء . كأنه يقف في هالة من النور ، وأن المكان يشرق
من نوره . يصع على رأسه عمامة ، ويرتدى سروالا من الجوخ
الأبيض ، وشملة حمراء ، وصديريا ، ويدس قدميه في بلغة كالتي
يرتديها المغاربة ..

غلبت للهفة على صوته :

— هل أنت من أهل الجزيرة ؟ ..

افترت شفتا العجوز عن بسمه حانية :

— ما أعرفه أبو نمت من أهل البحر ..

وسأل في لهجة إشفاق :

— متعب ؟ ..

تنهد :

— كانت الرحلة طويلة ..

ثم وهو يضع راحتيه — بتلقائية — على رأسه :

— أفسى ما فيها أشعة الشمس للحارقة ..

— لكك في النهاية وصلت إلى هنا ..

وخالط صوته حنو ولصح :

— حمدا لله على السلامة ..

فاجأه الشيخ بأنه التقى به في موالد أولياء فحى ، وفسى صلاة
الجمعة لدخل أبو العباس ، وفي الأكنار دالتقرب من الباب المطل على
المناء الشرقية ، وفي ميده — فى غيشة العجر — لأداء الصلاة فسى
مسجد سيدى نصر للدين ..

بدت ملامح الشيخ مأتوفة ، وبلى لم يتذكر أين رآه ، ولا متى ؟ ..
تنحى له للشيخ ، فأدرك أنه يستطيع أن يمضى إلى داخل
الجزيرة ..

رأى نفسه فى دنيا غير لدنيا . ما لم يكن يتصور أن يشاهده .
الأرض مكسوة بالنمارق ، والأشجار محملة بأنواع الثمار ، وألوان
الأزهار والرياحين ، وبالنباتات الدانية قطوف ثمارها . خيل إليه أنها
تتمايل رقصة على أنعام سماوية ، لم تألفها ليداه ، ولا أنصت إليهمها
من قبل ، تحللت مسام جسده . حركت مشاعره بالنشوة ، وألوان
لطيف تتماوج فى تكوينات لا حد لبهاتها ..

قبل أن تميل به الطريق ، أحس بالعطش . مال إلى شجرة لها عينا ماء ، أسد قه إلى راحته ، وشرب . أحس كأنه اغتسل ، كأنه تطهر . كل غدي عناه أحد في التلاني . لم يعد في داخله صيق ولا ألم ولا قلق . وثمة عشاء طيور يتناهى من داخل الغابة الغريبة ، متدخلا ، كأنها تؤدي لحنا فرضته الغلوية ..

أحس — وهو يمشى — كأن قديمه لا تلامسان الأرض ، وأنه بطير ..

همن لعنه : هذا هو الضياء ..

اعتسلت عينا بأشعة الشمس . لم تعد للشمس اللاهية ، وإنما تحولت إلى قيس أصواء الموحودات . تدفق الضياء . تدخل الضياء في الضياء ، فالتفت المرئيات بما لم يتصور أنه سيطالعه . النور فوقه وأمامه وحوله ، ساطعا ، قويا ، كما لم ير من قبل . لا نهاية لأدقه ، ولا يبين مصدره . لا سماء له ، ولا أرض ، ولا صفات . هو يضيء ، ويعاني ، ويحتوى . طالعه ما لا عين رأت ، ولا أثر سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . استغرق الضياء الشامل ، صباه مسكون بفداسة بورانية ، علوية ، لم يسبق له رؤيته ، ولا تصور أنه بكل هذا الحمل . استقل الغيوص والوميص والأنوار والتحليقات والمعارف والأحوال والكرامات والأسرار الربانية . حشع الجلال والسكون . تصاعدت النشوة . توحد مع الكائنات ، ذاب فيها ، ودانت فيه . لم يعد هو هو ، وإنما أصبح قطرة في البحر الهائل ، نعمة في ملايين

النجوم ، درة رمل في صحراء لا متناهية . لم يعد للجرة ، لكنه الجزء ملتصقا في الكل ..

طلبت وفته داهلا ومسجورا . عبة حصراء نعب مساحتها في امتداد البصر . ادعائ متكتفة ، غريبة الأشكال ، من النحيل والأشجار المتدلية الثمار والأعصان المشائكة والنباتات التي بلا حصر ، غابة متصلة من الأوراق الخضراء ، بحر بلا أفق من الخضرة ..

بهرته للصخرة الجميلة التي كمت مساقا الأشجار . لا تشبه الأشجار التي شاهدها في حياته . لا يكاد يسير من تحت شجرة حتى تسقط عليه ثمارها . ثمار أصغر من الرمال ، وأكثر من القمح . شعر — لتدوقها — بحلاوة العسل . وثمة أشجار تنلى من فروعها ما يشبه الأجراس ، تلامسها السائم فتحركها في هسيس كأنه الموسيقى . تعيسا طلال الأشجار الممتدة إلى غير نهاية ، وتشم الزهور التي لم يتعرف إلى مثل جماتها ، ولا إلى أصوع من روائحها الذكية النفاذة ..

الأرض شديدة البياض ، وثمة غلالات شبيبة ، تحولت بها المرئيات إلى أطيار . المروح والحدائق والأكام : البورد والبسج المرجح والربيق والموس وشعائق العمل ، والآف النباتات الغريبة التي لم يسبق له رؤيتها ، والأشجار المتباينة الأطوال والأحجام ، تدلت منها ثمار عجبية . أنواع من الطير — بكل ألوان الطيف — تحلق في السماء الصافية الرقيقة . ثمة الكثير من العزلان والطبائع والبعج والظلويس . الأرض مكسوة بالمعارق والأحجار الكريمية ، والأشجار محملة بالذكاة الدانية قطوفا . خير الميه من المنحدرات يعرف أحيانا كصوء القمر ، ودعاء شعة الشمس . والحو معتدل ، لا

هو حر ولا يبرد ، والضوء سافر مع أن عيبيه لم تريبها الشمس ولا القمر . جذرا الفصور — معظم النسيات قصور — صغراء ، ملتفعة بما يصوى . وثمة عرف من رجاح ، يرى ظاهرها من باطنها ، ويرى باطنها من ظاهرها ، والأبواب مفتوحة ، يصدر من حولها صوء غير مرئى ، وتتصوع روائح الرعيران والعسير والقرنفل والصنل والعود واللعل والباسمين ..

الناس لشرقت أولوتهم ، وصفت وجوههم ، وحرت عليهم نضوة النعيم . المئات من العتيات ، تتصوع من أجسادهن رائحة المسك ، يرتدين ثيابا من الحرير حصراء اللون . التفت العتيات حوله . ثمة من وصفت الطست أمامه ، ومن أمسكت بالإبريق ، ومن حملت المنشفة . تاروين صب الماء فى الطست ، حتى انتهى من وصورئه ، وجفف جسده بالمنشفة ..

كان الممرض قد ذهب . نوث الألام فى جمده ، وتلاشت ، وصفا للدهن ، وتصاعدت من داخله موسيقا علوية ، غائبة المصدر . استقامت الأكلان ، وعلت . تدخلت الأصوات العتيدة ، وتدفعت فى المدى لؤل الطوبى ، وتماوجت رفعات تحلق فى الفضاء الشفيف ، وتتصوع روائح العبير والمسك والكافور ، علت ، وامتكت ، فلف أرجبها كل شيء ..

تمازجت فى نفسه مشاعر الهيبة والحواف والإجلال والتعظيم . بدا المشهد أكثر مما يستطيع تحمله . ولا الوقوف أمامه . ثمة صوت ، ربما ينفق من داخله ، يستحثه على السجود فى موضعه .. علا الإيقاع ، وتصاعدت الأغبيات المرطوبة من بينابيع السماء ..

نصت إلى لغة الإشارة والحكمة والألغار والأحلام والسحر والروى المدفئة ..

أحسن أنه أمام لحظة ميلاد ، تولدت بشوة لم يدر مبعثها ، ظهر الوهج فى الأفق ، واحترق الطلعة قس ، وثائق الأرجوان . استعرق فى النور ، تلاشى فيه . فاص الحبيب ، وتسربلت الأشياء بالشجر . أحسن بحب جارف لكل ما فى الكون . حطر له أن يطلق صيحة فرح . لكنه تمالك ...

ثمة أطياب صينية الملامح ، ساحرة ، تحركت من حوله . تحبب بور لم يسبق له رؤيته ، وإن لم يؤد شدة إبهره بطره ، محملا بالإشراق واليعين ..

سار محفوقا بمنلت العتيات . يرتدين ثيابا بيض ، يشدن أعينيات ، وينثرن الأزهار ..

كانت نفسه تضيق عن تصور ما يراه ، لولا أنه هو ما يراه بالفعل ..

ومضت فى السماء الصافية وجوه يعرفها . استعادت أحداث الأعوام الاثني والثلاثين نفسها أمامه . القسمات والملامح والتكوينات والألوان والظلال . تولت الروى متشبكة . عشرات الوجوه ، مئات الوجوه . آلاف الوجوه ، تولت فى الدهن متقاطعة ، ومختلطة ، نومص ، ثم تحتكى . قال الطبيب . أنت لا تصابى مرضا عسويا وعالجه ، وقال الشيخ بجأتى . إذ أريت رؤيه بحكم ، فلذهب الـ . وقال الشيخ : رحيلك للبحث عن اسئلة تنفيك ، وقال الشيخ : كنت ظنم أن رحلتك قد تكون بلا عودة . وتامل السمكة وهى تتنص فى

السدرة ، وأصبت إلى حكايات عرائس البحر والحبيبات والحواري
والعواثم المسحورة ، وتعلم أسماء السفن والأسماك وأدوات الغوص
والصيد ، ولجأ إلى ولى الجزيرة ، بكلمه كأنه يراه ، واستقر الخوف
فى داخله ، لا يعرف بواعثه ، ولا كيف يتخلص منه ، وأجهنته
الأشباح والأرواح الشريرة والأصوات الهامسة والنداءات التى
لا يدرى مصدرها والسبح التى تظهر ثم تختفى ، ووقف على باب
الشيخ حتى أدرك له بالندحول ، وعرف ما لم يكن يعرفه عن السماء
والبحار والمحيطات والأعماق والأسرار المثيرة ، وقالت أمه : ما قاله
لوك صحيح . ولذلك فى جزيرة بعد الأعوشى ، وتوسلت مديحة :
لمادا لا تعود إلى الأجداء وتترك هذه الرحلة ؟ ، ولوحت له فى وفقتها
على الشاطئ ، وترامت الأمواج بلا نهاية فى كل الجوانب ، وتدخل
كل شيء فى كل شيء ، وتلاطفت الأصوات بما لم يعد بضليقه ..

تبين فى الملاحع الهلامية ، المتصاعدة من صباب شفيف ،
ملاح أمه وأبيه والشيخ جلتى ومديحة والولدين والكابتن ، وأصدقاء
مضت أزمان دون أن يلتقى بهم ..

حنق فيها ، وتأمل ، وتعرف إلى ما كان قد نميه ..
استغرق فى الوجد . أحس بالأنس والرضا ، وبحب عميق لكل
ما بطرته عيانه ..

حل الصعاء والسكبنة والطماطية . ونجت الحفنتق بلا حجاب ..
أقام فى حجرة لم ير مثتها فى حياته . ما بدلحليها يظهر من
الخارج ، وما بخارجها يظهر من الداخل ..

هرغت الفتيات له . ثم يس بإحصائهن . أغدق عليه الحب
والحنان والتعاطف . غير بما لم يكن أستمع إليه من ألحان تمسارجت
هيا الأسميت ومولويل العذوبة والجمال . يصنف معصم العيين ، أو
يردد ما يستمع إليه حين يتكرر . تعالت ترانيم العشق وأهت النسوة
وصيحات الوجد . نلك جسمه برت من حلاصة الأعشاب والزهور .
روى له الحكايات . شغل الأوقات بالأحصى والفوارير والألغار ..
تعرف - كما لم يتعرف من قبل - إلى السماء والنجوم والشمس
والقمر والبحر والبحل والسحب والطير والحيوان وقطر السدى
والريح والسمات الهائلة والبركات والغيوصات والأنوار . بدا كل شيء
كأنه حلم جميل لا يريد أن يصبح منه ..
سما ، وشعت روحه . عرفت النسوة والارتقاء ، وملذات
الحضبة ..

احتلت الحياة فى الجزيرة عن الحياة فى بحرى ..
اعتاد الجلوس إلى الحميلات والأصدقاء ، أو تناول الطعام فى
ظل شجرة ، أو على شاطئ نهر ، أو فوق تل مرتفع يطل على
المدى ..

لم تعد تشغله سوى اللحظة ، وحدها ، مقطوعة الصلة بما قبل ،
وبما بعد ، ولم يعد يشغله التذكر . الهناءة قنمة فى امتدادات اللحظة ،
والسعي لا ينقطع . رأى المستقل أيضاً لم تعد تشغله . كل ما بعد إلى
نه. بتحقق ، فلا تركه التوقعات . شاهد الأشجار الغريبة ، والنهار

التي لم تلامسها يده من قبل . أدله أن الأيدي تلتقط ما في الشجر من ثمار ، لكن الأشجار تظل مثمرة كأنها لم تمس ، والبحيل جذوعها حمراء اللون ، وورطها أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأثير من الريد . نيق أن كل ما يحياه من نعيم ، إنما هو من بركات الشبح . نمتع بكل شيء . قدمت له العواكه والنقل والحمر . لم يكن قد تدوق الحمر في حياته . بدت له لذيدة المذاق ..

فكر في أن يزور . يرقب القدرة حتى تنمو ، وتكبر ، وتصبح ثمرة .. لكن الشور نمت ، وحل حصاها . الحصر والعاقبة دافعة ، لا شأ لها بتبدل حصول . أكل الطعام في غير أوانه . ألوان بلا حصر من الطعام والشرف . جاعته الأثنياء لمجرد أنها خطر في ناله . يشتهي السماع والرؤية والطعام ، فيتميز ما يشتهي . يلتصق الطعام بمجرد تشهيه له . يغمه له باس الجريزة في أظباق من الصيبي الفاجر ، ومن الذهب والفصة ، أو يتعالى بداء السلع باسم الطعام ، فيشتره . لم يعد يشغله ما يأكله ، وإن تحدد طعامه في اللحوم والأسماك والطيور . الطعام سهل للهضم ، فهو يتناول في أوقات متعاقبة ، والماء شديد اللباض ، وله حلاوة . احتسى شرابا يذير الرأس ، ويمتد النفس . لاحظ أنهم يصنعون الشراب — غير مختلط — في إناء واحد ، ماء وخمر ولبن وعسل . لا يمل الشرب ، ولا الشراب ينفد ، ولا يتغير مذاق لسانه بتغير ما يشرب . دهل لرؤية نفسه في الصينية اللامعة . لم يعد هو هو . غاب تعيب المرص ، ومعاناة الرحلة لم تعد ملامحه . ذهب تورم حفيه ، والتهالات

السوداء تحت العينين ، وشحوب الوجنتين . سرى الدم في بشرته ، ووضعت عيناه ببريق ، وبدا أشد صحة وشبابا ..

تكرر جلوسه إلى شيخ دى هيبه ، يتلو وراءه آيات القرآن . ألف التحلوس إلى حيرال ، يتسامرون ، ويتصاحكون ، ويتقبل هداياهم ومواهبهم . يتذكرون كيف كانت الحياة في المدن البعيدة ، وكيف مصت بهم السوس الكبيرة والصغيرة ، إلى الجزيرة التي كأنها السحر . لم ترهقهم المسافات فهائلة . كأنها لمح البصر ..

التي من كان يعرفهم ويعرفونه في بحرى . أكثروا من الأسئلة عن أحوال الناس في بحرى ، كيف هي ؟ ونحنسوا عن مباديئ وشوارع وبيوت وحوامع ومقاهي وأسواق . نقلته الأحاديث إلى الأماكن التي غيبتها الأزمان . تراقصت من حوله عرائس البحر . لم يعد يحس احتداد غائش له . اعتاد الشدو والأغبيات الجميلة والأهاريح المترمة ، وتمازج القيثارات والأعود والكمنجاب والطنول والتعوي والصلاجات . وكان يتمايل مع الأحسن دلالة الشوة ..

قالت له المرأة :

— أتنام ولك منى ؟ —

كالومضة ، بدت المرأة كلها منوحة ..

هل هي منيحة ؟

احتلط الزمان ، فلم يعد يتذكره ، وإن لم يتغير ملامحها عما

نطع في دمه ..

قالت إنها طلت تنتظر حتى استبطأت قدمه . اثناقت إليه كما

تشتاق المرأة إلى زوجها الغائب ..

— مرت الأيام بطيئة وأنا أتقرب قدومك ..
 لم يخف دهشته :
 — هل تعرفيني ؟
 — رسمت ملامحك في ذهني ..
 أصاقت وهي تتأمله :
 — لم تتغير عما رسمته لها ..
 وابتمت عيناها :

— إنما كنت عند زوجتك دخيل يوشك أن يفارق إلينا ..
 تجلس إليه وهي في غاية زينتها ، وتطيبها لجسدها . لا أجمل
 منها ، ولا أحسن منظرا . عيناها شديدا السواد واليباض . تنبعث من
 فمها رائحة المسك . خضبت يديها وقدميها بالحناء ، وتطيبت بالبخور
 والعطور . الأموار في ساعديها ، والخلاخيل في ساقها ، لها رنين ،
 وعلفت في أذنيها قرطين كأنهما شمسان صغيرتان ، ورصعت أناملها
 بخواتم ذهبية ، ذات رموس من قصوص الباقوت ..

بدت له المرأة أول من عرف من نساء . يشعر أن عناقها لها مثل
 عمره في بحرى . إذا فرغ من نكاحها ، أسرع إلى الماء البارد
 يغمس فيه جسده ، لتزول عنه حرارة جسدها ، وإن شعر بتجدد صحته
 فور أن ينهض من فوقها . في داخله قوة مائة رجل في الأكل والشرب
 والجماع . وكانت المرأة تغنى له بأحسن صوت ، تنتقل أصابعها —
 برشاقة — فوق أوتار العود ، وتغنى . تجيد الانتقال من مقام إلى مقام ،
 ومن نغم إلى آخر ، وتخفص صوتها ورفعها ، وإحداث بحة فيه تزييد

من شجته وطربه . تبدو الأنغام نغما وحيدا ، جميلا ، متصلا . تتمايل
 — وهي تغنى — وتهتز ، كأنها ترقص في مكانها ..
 يذهب إلى جيرانه البعيدين على جواد — لا يذكر متى تعلم
 ركوبه — يقضى أوقاته ، ويعود . إذا أحس بالتعب ، حملة رجال على
 محفة ، يمضون به إلى الجهة التي يريدونها في الجزيرة ..
 لاحظ أنه لم تصله أنباء موت ولا موتى ، ولا رأى جنازة فسى
 الطريق ، ولا وصله — ذات لحظة — بكاء أو عويل ..

أدرك أنه لن يعود ثانية إلى بحرى : أبو العباس والبوصيرى
 وياقوت العرش ونصر الدين والسيالة وشارع سيدى العجمى وميدان
 الأئمة والمواك وحلقات الذكر وسوق العيد وتسليح الفجر والميناء
 الشرقية والكورنيش وخليج الأنفوسى وضوء القنار وقاعة قانتينى
 وسراى رأس التين وفرح حبيب والمسارخانة والحجارى والموازينى
 وشارع الميدان وزنقة الستات وسوق الخيط وصيد السمارة والطراحة
 والجرافة وحلقة السمك ونداءات الباعة وإبتهالات الصوفية وتشابك
 الأذان فى جوامع الحى .. ذلك كله يصبح ذكرى . تبتهت الذاكرة .
 تنوى من الذاكرة ، حتى تغيب تماما ..

” محمد جبريل ” — مصر الجديدة ١٩٩٩/٩/٢٦

مؤلفات محمد جبريل

- ١ — تلك اللحظة (مجموعة قصصية) ١٩٧٠ — نقد
- ٢ — الأسوار (رواية) ١٩٧٢ هيئة الكتاب — الطبعة الثانية ١٩٩٩ مكتبة مصر
- ٣ — مصر في قصص كتابها المعاصرين (دراسة) للكتاب الحائز على جائزة الدولة — ١٩٧٣ هيئة الكتاب
- ٤ — انعكاسات الأيام العvisية (مجموعة قصصية) ١٩٨١ مكتبة مصر — ترجمت بعض قصصها إلى الفرنسية
- ٥ — إمام آخر الزمان (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٤ مكتبة مصر — الطبعة الثانية ١٩٩٩ دار الوفاء لعنبا الطباعة بالإسكندرية
- ٦ — مصر .. من يريدها يسوء (مقالات) ١٩٨٦ دار الحرية
- ٧ — هل (مجموعة قصصية) ١٩٨٧ هيئة الكتاب — ترجمت بعض قصصها إلى الإنجليزية والماليزية
- ٨ — من أوراق أبي قطيب المتنبى (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٨ هيئة الكتاب — الطبعة الثانية ١٩٩٥ مكتبة مصر
- ٩ — قاضي البهار ينزل البحر (رواية) ١٩٨٩ هيئة الكتاب
- ١٠ — الصهبة (رواية) ١٩٩٠ هيئة الكتاب
- ١١ — قلعة الجبل (رواية) ١٩٩١ رويات الهلال — الطبعة الثانية ٢٠٠٠ مكتبة الأسرة .
- ١٢ — النظر إلى أسفل (رواية) ١٩٩٢ — هيئة الكتاب
- ١٣ — الخليج (رواية) ١٩٩٣ هيئة الكتاب
- ١٤ — نجيب محفوظ .. صدقة جيلين (دراسة) ١٩٩٣ هيئة قصور الثقافة
- ١٥ — اعترافات سيد القرية (رواية) ١٩٩٤ رويات الهلال
- ١٦ — المسحار .. رحلة إلى السيرة النبوية (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر
- ١٧ — أباء المستنيلات .. جيل لجنة النشر للجامعيين (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر

- ١٨ — قراءة في شخصيات مصرية (مقالات) ١٩٩٥ هيئة قصور الثقافة
- ١٩ — زهرة الصباح (رواية) ١٩٩٥ هيئة الكتاب
- ٢٠ — الشاطئ الآخر (رواية) ١٩٩٦ مكتبة مصر — ترجمت إلى الإنجليزية — الطبعة الثانية ٢٠٠١ مكتبة الأسرة .
- ٢١ — حكايات وهولاء من حياة القبلى (مجموعة قصصية) ١٩٩٦ هيئة قصور الثقافة
- ٢٢ — سوق العود (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب
- ٢٣ — التفاحة الباب (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب — ترجمت بعض قصصها إلى الماليزية
- ٢٤ — أبو العباس — رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر
- ٢٥ — يا قوت العرش — رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر
- ٢٦ — البوصيرى — رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر
- ٢٧ — طلى تمرار — رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر
- ٢٨ — مصر المكان (دراسة فى القصة والرواية) ١٩٩٨ هيئة قصور الثقافة — الطبعة الثانية ٢٠٠٠ المجلس الأعلى للثقافة
- ٢٩ — حكايات عن جزيرة فاروس (سيرة ذاتية) ١٩٩٨ دار الوفاء لعنبا الطباعة بالإسكندرية
- ٣٠ — الحياة ثنية (رواية تسجيلية) ١٩٩٩ — دار الوفاء لعنبا طباعة بالإسكندرية
- ٣١ — حارة اليهود (مختارات قصصية) ١٩٩٩ — هيئة قصور الثقافة
- ٣٢ — لعينا الشرقية (رواية) ٢٠٠٠ — مركز الحضارة العربية
- ٣٣ — رسالة السهم الذى لا يخطئ (مجموعة قصصية) ٢٠٠٠ — مكتبة مصر
- ٣٤ — بوح الأسرار (رواية) ٢٠٠٠ — رويات الهلال
- ٣٥ — مد الموح (تفقيعات نظرية) ٢٠٠٠ — مركز الحضارة العربية
- ٣٦ — البطل فى الوجدان الشعبي (دراسة) ٢٠٠٠ — هيئة قصور الثقافة

كتب عن المؤلف

- ١ - الفن القصصي عند محمد جبريل - مجموعة من الباحثين - ١٩٨٤ مكتب منيرفا بالقازيق
- ٢ - دراسات في أدب محمد جبريل - مجموعة من الباحثين - ١٩٨٦ مكتب منيرفا بالقازيق
- ٣ - البطل المطارد في أدب محمد جبريل - حسين علي محمد (دكتور) - ١٩٩٩ دار الوفاء بالإسكندرية
- ٤ - ضيضاء نقدية : تملّلات في العالم الروائي لمحمد جبريل - ماهر شفيق فريد (دكتور) - ١٩٩٩ دار الوفاء بالإسكندرية .
- ٥ - محمد جبريل .. موال سكندري - فريد محوض وآخرون - ١٩٩٩ كتاب سمول
- ٦ - استلهام التراث في روايات محمد جبريل - سعيد الطوب (دكتور) - ١٩٩٩ دار السندباد للنشر
- ٧ - تجربة القصة القصيرة في أدب محمد جبريل - حسين علي محمد (دكتور) - ٢٠٠١ كلية اللغة العربية بالمنصورة
- ٨ - فلسفة الحياة والموت في رواية الحياة ثلثية - نعمة فرطاس - ٢٠٠١ أصوات معاصرة
- ٩ - روائي من بحري - هسلى سيد إبيب - ٢٠٠١ هيئة قصور الثقافة

رقم الإيداع : ٢٠٠١/١٦٠٤٢

الرقم الدولي : X - 1428 - 11 - 977



منذ أربعين عاماً أو نحو ذلك ، شكا
 يحيى حقي في بعض كتاباته من
 انحصار أغلب أبنائنا في دائرة
 الخبرات الواقعية المصنوعة ،
 واقتصرهم على وصف المشاكل
 الاجتماعية والاقتصادية للموظف
 الصغير المطحون أو الطالب
 الفقير أو المرأة المقهورة في
 زواجها أو محاولتها كسب العيش ،
 تركيز جانب التجارب الروحية
 الكبرى التي تعيش أزمات الضمير ،
 وصلاة الروح ، وتوترات العقل .

و "نجم وحيد في الألق" واحدة من الروايات العربية القليلة التي تنفس بها
 تطلع إليه يحيى حقي ، فهي رواية أزمة وجودية حادة تبدأ بالملل وتنتهي
 بالعثور على المضي . إنها أشبه بكوميديا إلهية صغيرة ، هي بحري الذي
 ينطلق منه البطل هو الجحيم ، والجزيرة التي يحط عليها قاربه في الصفحات
 الأخيرة هي النعيم ، ورحلته البحرية الثقافة المعقدة هي المظهر أو الأعراف .
 لكن هذه الأمثلة الرمزية تستوفي ، إلى جانب لغاتها الأسطورية والفكرية
 والروحية ، كل شرائط النص الواقعي . فتحن هنا نشم روائح البحر
 والشوارع والأزقة والأسواق والميادين ، ونعش في قلب الإسكندرية التي
 يعرفها محمد جبريل كما يعرف ظهر بده ، ونستلهم رطابة أهل البحر التي
 تكاد تكون لغة صغيرة قائمة برأسها ، وتتابع أسماء النوات البحرية
 وتوازيها ، وأنواع الأسماك والطيور ، ونستمع إلى تنف من محادثات
 البطل مع أمه ، ومع زوجته مديحة ، ونستحضر في أخلاننا ولديه مديحت
 ويسرى . كما يقوم على جانبي الرواية - كعلامات طريق - الكباشن من
 ناحية ، والشيخ نجاتي من ناحية أخرى .. أحدهما يجسد البحر بكل دلالاته
 الواقعية والرمزية ، والثاني هو صوت الغيب الذي يحثه على الخروج للبحث
 عن نجمه - نجم وحيد في الألق - الذي يرالفه منذ الميلاد وإلى الممات .
 هذه رواية غير عادية لكاتب غير عادي ، لا يلغا يتسم في كل عمل
 جديد له قمة أعلى من سابقتها .

د. ماهر شفيق فayed